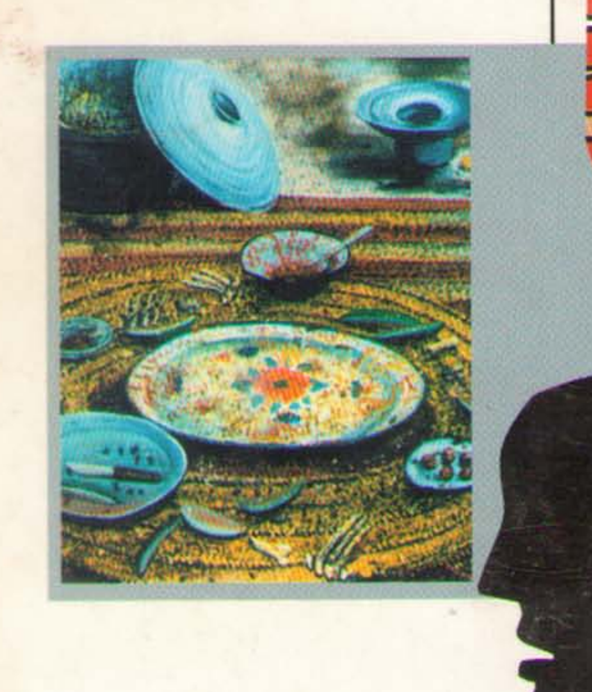
إبداعات عالمية



331

من الأدب
الياباني

- مطبخ
- خيالات ضوء القمر



تأليف
بنانا يوشيموتو

ترجمة
بسام حجار
مراجعة
د. منى إبراهيم غريب

سلسلة شهرية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

أغسطس 2001



• مطبـــخ
• خيالات ضوء القمر
(من الأدب الياباني)

تأليف:

بنانا يوشيموتو

ترجمة:

بسام حجار

مراجعة:

د. منى إبراهيم غريب

العدد 331 أغسطس 2001 | 1 |

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	**500** فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولاراً أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**10** د.ك
للمؤسسات	**20** د.ك

دول الخليج

للأفراد	**12** د.ك
للمؤسسات	**24** د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	**25** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**50** دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	**50** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**100** دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: **28623** - الصفاة - الرمز البريدي **13147**
دولة الكويت

ردمك ٧ - ٠٦٢ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906- 0- 062-7

• مطبخ
• خيالات
ضوء القمر

العنوان الأصلي :

• KITCHEN

BANANA YOSHIMOTO

• MOONLIGHT SHADOW

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2001م

إبداعات عالمية   العدد 330

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها : أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣-١٩٩٠)

اسم اللوحة: بعد الغداء

الفنان: أيوب حسين - الكويت

المادة: زيت على فيبر

القياس: ٩٠×١٣٠سم

مقدمة

كـان هنـاك بالتـأكـيـد أكـثـر من سـبـب واحـد لتلك الحـمـى التي رافـقـت، أواسـط السـتـينيـات، ترجـمـة الأعـمـال البـارزة في الأدب اليـابانـي، قديمه وحـديثـه، إلى اللغتين الإنجليـزية أولا، ثم الفـرنسـيـة، ومن ثم إلـى عدد آخر من اللغات العـالمية. ولعل أبرز تلك الأسـبـاب يكمن في مـا يقدمه هـذا الأدب من حسـاسـيـة مغـايرة لم يعـرفهـا من قـبل الأدب الغـربي بمـخـتـلف اتجـاهاته وتجـاربه وتيـاراته. فـربما عـجـز العـقـل الديكارتي، آنذاك، أن يدرك كـيف يمكن لحسـاسـيـة فنـيـة جـديدة (لا بل مـفـرطة في جـدتهـا) أن تقـوم على أسـس «التـقليـد» الراسـخـة، منذ قـرون مـديدة، على مـعـاييـر الرجـولة والتـضـحـيـة والرفض، أحـيـانا، ولـكن من أجل ترسـيـخ قـيم الامـتـثـال. ولـكي لا نسـتـدرج القـارئ إلى الأفكار المجـردة يكفي تدليـلا على مـا نذهب إليـه أن نسـتـعـين، على سـبـيل المثـال، بالمضـامين البـارزة في أعمال كاتبين يابانيين كبيرين، قيِّض للقارئ العربي أن يطلع عليهـا بالعـربيـة، همـا ياسـوناري كـواباتا ويوكـيـو ميشيمـا، اللذان أنهيا حياتهما طوعا في ذروة مجدهما

الأدبي. فقد انتحر الأول عام ١٩٧٢ بعد نيله جائزة نوبل للآداب بأربعة أعوام، وانتحر الثاني على طريقة الساموراي اليابانية التقليدية (السبوكو أو الهاراكيري) في حركة احتجاج استعراضية، داخل مبنى وزارة الدفاع. وكل من ميشيما وكواباتا يمثل، على حدة، أبرز وجوه الحداثة في الرواية اليابانية منذ العام ١٩٢٠، ومن دون أن يتنكر أي منهما لتقاليد الكتابة التي أرسيت عبر تاريخ ثقافتهما العريق.

غير أن هذا التكافل بين مضامين الحداثة وبين أصول التقليد، لم يكن، ذات يوم، تكافلا أو تعايشا سلميا وإن كان في معظم الأحيان تفاعليا. ومن هنا منشأ الأزمة في تجليات تلك العلاقة التي طاولت الثقافة بميادينها كافة وأنماط السلوك والعيش، وليس فقط أنماط وأساليب التعبير الأدبي. فإذا كانت الأزمة الوجودية قد حدت بميشيما إلى إحياء تقاليد الساموراي وإلى اختياره الموت الاستعراضي العنيف، احتجاجا على أفول «شمس الامبراطورية» في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فإن انتحار كواباتا، على الرغم من خلوه من الطابع الاحتفالي، إنما يشير إلى «ضيق» ما، جوهري، مصدره

ذلك التعارض بين النزعة الحسية الإحيائية وبين مظاهر الحياة الحديثة التي تقوم، في جوهرها، على الهشاشة والتصرّم والزوال.

إن السعي وراء المثل المجردة جعل العيش مقتصرا على مثالات القوة والجمال، فأخفق ولم يورث سوى العنف في حدوده القصوى («مذكرات قناع» أو «الشمس والفولاذ» لميشيما)، وكذلك أخفق من لاذ بمملكة الحواس التي جعلت مقتربا وحيدا لإدراك العالم والوجود فيه («الجميلات النائمات» أو «سرب طيور بيضاء» أو «راقصة ايزو» لياسوناري كواباتا). ذلك أن صدمة الصلة بالعالم الغربي ليست متأتية فقط من كون الغرب مطمئنا إلى مفاهيمه ومثالاته، بل أيضا من كونه ماثلا في التفاصيل الدقيقة للعيش اليومي. إنه المغامرة الماثلة بمخاطرها لكنها، في الوقت نفسه، المغامرة التي لابد من خوضها.

ولن يبدل مسرد الأعمال الروائية لجايلي كواباتا أو ميشيما والأجيال التي تلت، من هذا المشهد إلا القليل، تانيزاكي، شوساكو اندو، كترابورو أوي... وسواهم. لقد أقاموا، جميعا، على شفير هذا

التعايش/ التناقض، وأضافوا إلى أعمال الكبيرين أعمالا كبيرة وذات مكانة مرموقة في سجل الأدب العالمي، غير أنهم أقاموا على اللغز الذي يجعل «أسوار الشرق»، بحسب عبارة تانيزاكي، أسرارا هي الفتنة المتبقية في أزمنة الوضوح الحسابي و «الحيز الفضاء» والمكننة وإلغاء الاختلاف وتسوية الفروق... واللغة الواحدة. فاليابانيون يدركون جيدا أن ما يبقى من علامات تميزهم يتصل أولا بلغتهم التي تسعى إلى محاكاة عيشهم بالتصوير. فالعيش تصوير والكتابة تصوير، وأما التصوير فهو تصوير، أيضا، مكتنف بالظلال.

وبدهي أن يكون مثل هذا الميراث ثقيلا. إذ لم يتم الانتقال واضحا وحاسما، لا في ميادين الحياة (على الرغم من الطفرة التكنولوجية الهائلة) ولا في أشكال التعبير الفني ولا في أي مجال آخر. هناك الكيمونو والزي الغربي، هناك الكومبيوتر وقصيدة الهايكو. هناك رجل الأعمال والصناعي والموظف (الذي قد يعمل ١٥ ساعة في اليوم) وقبالة هؤلاء جميعا هناك مثال الساموراي وأخلاقه، ميترو الأنفاق و «شجرة

البرقوق»، موسيقى التكنو ومسرح «النو» أو مسرح الظلال، وأحيانا كثيرة لا يكون الواقع اختيارا بين بعض هذه أو سواها، بل يكون الواقع هذه كلها بشيء من الفظاظة.

في أواسط السبعينيات، ومطلع الثمانينيات، بدا المشهد الروائي في اليابان متبدلا، أو أنه ينحو إلى القطيعة مع ماضيه. وبرزت تجارب روائيين شبان، وأسماء لم تكن معروفة من قبل. في السبعينيات برزت أسماء مثل هيكارو أو كويزومي وكنجي ناكاغامي وياسوو تاناكا وهاروكي موراكامي، وفي الثمانينيات، يوكو أوغاوا (لها: «حوض السباحة»، «النحل»، «الحمل») وبنانا يوشيموتو. لقد أرسى جيل السبعينيات والثمانينيات معايير مختلفة للكتابة الروائية اليابانية، فما بدا لعقود خلت أزمة كينونة يستحيل تجاوزها جعل منطلقا لاستكشاف «العنف» الرمزي الكامن في ثقافة الصراع بين «التقليد» و «الحداثة»، وهذه المرة ليس من زاوية «الشرخ الهائل» الذي خلفته الحرب المدمرة، بل من زاوية المصائر الفردية، وبصرف النظر عن القضايا الكبرى، في

صلتها (أي المصائر الفردية) بالآخر بوصفه فردا. فما تسعى الرواية، رواية هؤلاء، لاستكشافه هو الذات المتلبسة بصلتها بالآخر.

الماضي لم يعد بطلا روائيا. والماضي لم يعد مثالا للغبطة، كما لم يعد منهلا للحنين. والأفكار لم تعد ذريعة للسرد الروائي.

الأفراد والأشياء وتفاصيل العالم الصغيرة أصبحت هي ما تستحق أن تكونه: أي الجواهر البسيطة لحياة تتسع لمصير واحد ولا تتسع للمصائر التراجيدية. لا بل لا تدرك معنى البطل التراجيدي. لقد اكتسب الكتّاب الجدد في اليابان كل تقنيات الرواية الغربية الحديثة، واختبروا، إلى أقصى ما يجيزه الاختبار، أنماط عيشهم المتناقضة، وعبروا عن اختبارها العنيف، واجتنبوا، في معظم الأحيان، غنائية أسلافهم. أما السمة الغالبة في نتاجهم فهي الميل المعلن إلى الاقتضابية التي تجمع عناصر الرواية، مكتملة، في متوالية سردية لا تتجاوز صفحاتها المائة، أو أقل أو أكثر بقليل.

ذلك أن العبارة الفرنسية ROMAN التي تقابلها العبارة الإنجليزية NOVEL، لا يقابلها باليابانية إلا عبارة «شوسيتسو»، أي حرفيا: «الشيء الصغير»، أي النص السردي المقتضب الذي لا يقول الأشياء «الكبيرة» ولا يعالج ولا يفسر ولا ينمذج وليست له مزاعم «ملحمية». بل إنه السرد الذي يحاذي الخيط الفاصل بين الغفلة عن العيش وبين الانتباه إليه بوصفه مادة سردية تستحق أن تروى، وتستحق أن تقال.

الكتاب اليابانيون الجدد يعتمدون الشوسيتسو بوصفه الشكل الروائي الأمثل لما يريدونه من الرواية. ولعلهم استلهموه من التجارب الكتابية الذائعة، هناك، لروائي ترك تأثيره الحاسم على الكتاب اليابانيين، هو أكوتاغاوا، وخصوصا رائعته «راشومون» (اقتبسها أكيرا كوروساوا للسينما في العام ١٩٥١ وأصبحت من كلاسيكيات السينما العالمية). وإذا كان عدد منهم قد اعتمد، على سبيل التجريب، الشكل الغربي «الملحمي»، فإنّ يوكو أوغاوا (الحائزة على جائزة أكوتاغاوا في العام ١٩٩١ عن روايتها القصيرة «الحمل») وبنانا

يوشيموتو هما الكاتبتان اللتان أغنتا، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير في تجربتيهما، ذلك الشكل المقتضب للكتابة الروائية.

فإذا كانت يوكو أوغاوا تميل، في أعمالها المذكورة، إلى اختبار عنف المواقف الحدية، وتعرية الذات الإنسانية من كل أقنعة التظاهر، وإبراز جوانب القسوة المجانية في اللاوعي الكامن في أعماق كل فرد.. بنانا يوشيموتو تغوص في الأعماق ذاتها، لكنها تكتشف، في ظلمات هذه الأعماق، قوة هائلة تعين شخصياتها على الإقبال، على الرغم من كل شيء، على الحياة. أما سبيلها إلى ذلك فيكمن في استسلامها لما يمكن أن نسميه بحق: الواقعية السحرية. وهي واقعية سحرية لا تتصل، من قريب أو بعيد، بتلك التي عرفها القارئ العربي مع كتّاب أمريكا اللاتينية (أمثال غابرييل غارسيا ماركيز وماريو فارغاس ايوسا وسواهما).

إن اختيارنا روايتي «مطبخ» و «خيالات ضوء القمر» للكاتبة بنانا يوشيموتو ليس مصادفة بالتأكيد. فقد تكون هذه الكاتبة، إلى جانب أوغاوا، خير ما يمثل

جيل «الخلافة»، إذا جاز التعبير، في تاريخ الرواية اليابانية، وهي تعبر عن الحساسية الجديدة بكل تجلياتها، وتستأنف، برواياتها المقتضبة، المفاجئة لشدة بساطتها، صلة بالقارئ الشغوف بقراءة الرواية لمتعة الحكاية أولا، وثانيا لجدة الشكل. ألأن الرواية، بصفة عامة، فقدت هذا الهاجس «الحكائي» منذ عقود طويلة؟ ربَّما، وربما أيضا لأن الرواية مالت (خصوصا في الغرب) إلى تغليب المفاهيم (النص، التجريب، الرؤى الموضوعية،... إلخ) على النسيج السردي للحكاية، الأمر الذي جعل الرواية تمرينا أدبيا وأسلوبيا بحتا.

لقد أعادت بنانا يوشيموتو وصل القارئ بالرواية ذات المزاعم البسيطة، وتحولت منذ صدور عمليها الأولين، اللذين نقدم للقارئ ترجمتهما العربية بين دفتي هذا الكتاب، إلى ظاهرة لافتة في عالم النشر، ليس فقط في بلدها اليابان، بل وفي الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أوروبا، حيث راح النقاد يتحدثون عن موجة الشغف بأدب بنانا يوشيموتو بوصفها ظاهرة، أطلقوا عليها اسم BANANAMANIA.

بعض اللبس الذي يظلل شخصية الكاتبة التي اختارت اسما مستعارا لتعرف به، يسود أيضا عالم شخصيات رواياتها. أريكو في «مطبخ» وهييراجي في «خيالات...» هما تجسيد لهذا اللبس الذي يحيل الفارق بين الأنوثة والرجولة إلى تناغم تام في سياق الشرط الإنساني الأول الذي هو الحب. فقد يصبح الأب أُمًّا إذا كان الابن يحتاج إلى وجود الأم الغائبة، وقد يرتدي الحبيب تنورة حبيبته المدرسية إذا فقدها فجأة، ولم يصدق، على الفور، أنه فقدها إلى الأبد. فأي جنس هو جنس الإنسان إذا كانت حياته مقيمة على حدّي الموت والفقدان؟

رواية مطبخ تبدأ من سؤال بسيط: ماذا تفعل فتاة في العشرين من عمرها بعد وفاة جدتها التي لطالما عاشت في كنفها؟ ماذا تفعل إذا شعرت، فجأة، أنها أصبحت من دون أسرة، وأنها تستأنس بأجواء المطابخ (الدافئة) أكثر من أي مكان في العالم؟

تلك هي حال ميكاج، بطلة «مطبخ» في حياتها الطفيلية قبل أن تلتقي شابا (يويشي) يدعوها للانتقال للعيش في منزله حيث يحيا، بصحبة والدته،

حياة عادية لا يعكر صفوها شيء. تنتقل ميكاج للإقامة مع يويشي حيث ينتشلها حضور أريكو، أمه، من حال التخبط في اللامعنى والذي حسبت أنه سيلازمها إلى الأبد، أريكو ذات الفتنة الغامضة التي تعبر فضاء السرد كشمس عابرة قبل أن تموت بقسوة، جراء اعتداء عنيف.

مرة أخرى، وبعد رجاء لم يكتب له الدوام طويلا، تستسلم مكياج لمشاعر الأسى والحزن، وأحاسيس الفقدان المضاعف، لكنها، هذه المرة، لن تجد من يواسيها لأن يويشي أصبح مثلها، مشوش الذهن، غارقا في ألم الفقدان، فعلى الرغم من يقينها أن طيف أريكو مازال ماثلا في تفاصيل حياتها اليومية، فإنها تعلم يقينا أن فتنة هذا الحضور المنجّي، قد زال إلى الأبد.

في «خيالات ضوء القمر» تفقد ساتسوكي حبيبها هيتوشي في حادثة سير مفجعة فتغرق في مشاعر الحزن والفقدان، وتحسب أن ما حصل جعل حياتها رهنا بالماضي الذي لن يعود. أي أن حياتها أصبحت حفنة من الماضي. هييراجي، شقيق هيتوشي الأصغر،

فقد في الحادثة نفسها، شقيقه وحبيبته يوميكو. ساتسوكي وهييراجي أصبحا أصدقاء لأنهما يتقاسمان الأسى نفسه. لكن الحفرة التي أقاما فيها تزداد عمقا. تلتقي ساتسوكي أورارا التي يبقي حضورها (في الرواية) لغزا، لكنها تمنحها درب النجاة لتسلكه .

باقتضاب مفرط في كثافته، تروي بنانا يوشيموتو في روايتيها هاتين، حقيقة المشاعر التي تتغذى بالمفارقات والمتناقضات. كما تروي سير الحيرة والضياع في حياة أشخاص افتقدوا معنى أن تستمر الحياة. فأبطال يوشيموتو ليسوا أبطالا لأنهم اختاروا أن يكونوا هامشيين، وهامشيتهم هذه لا تتأتى من فقدانهم المكانة الاجتماعية، فهم جميعا ينتمون إلى أسر ويعملون، بل تتأتى من موقفهم الرافض أي صلة، مما تقدمه الحياة، لأنهم يعلمون أن الحياة لن تلبث أن تستعيده، فيفقدونه.

في روايات بنانا يوشيموتو، هناك دائما ذلك الإحساس بالفقد. فقد أشخاص أعزاء لا تعود الحياة ممكنة، كما كانت، من بعدهم، وإذا كانت ممكنة، أقفرت وانغلقت على أصداء حضورهم المترددة. صور

الرقة وتجلياتها تنبعث، كرائحة أليفة ولكن غامضة، من الماضي القريب، غير أنه ماض منقطع لم يبق منه سوى أطياف ناسه وأشيائه. والأطياف ليست أفكارا، سوداء أو رمادية، بل هي طعوم وملموسات، هي شواهد متريثة في الأرجاء لغياب أبدي محتوم.

الاقتضاب الذي يجعل لغة يوشيموتو مائلة إلى التقشف، هو نفسه الذي يحول بينها وبين الغنائية التي لا يبقى منها سوى الرجّع. ذلك أن الأصداء، على الضد من الأصوات، تكتنف الحواس كلها مجتمعة في حاسة واحدة.

أليس رنين الجرس الصغير المعلق بمحفظة هيتوشي هو الذي يتردد في جنبات العتمة؟

بين يدي القارئ العربي نضع هذه المتعة الصغيرة التي يسميها اليابانيون «شوسيتسو»، ومن خلالها النتاج المبدع لجيل جديد، لافت، من الكتاب اليابانيين.

المترجم

(١)

أحسب أنني أحب المطابخ أكثر من أي مكان في العالم.

ليس مهمّا عندي أين تقع أو حالتها، ولكن المهم أن تكون أماكن لإعداد وجبات الطعام، فلا أشعر بالتعاسة فيها. وأود، إن أمكن ذلك، أن تكون عملية وملمّعة من كثرة الاستعمال، فيها أكوام من الفوط النظيفة الجافة وذات بلاط ناصع البياض.

غير أنّ مطبخا شديد القذارة ليعجبني أيضا، سواء بسواء.

هذا المكان الذي تغطي أرضيته قشور الخضار، والذي يصبغ فيه الوسخ النعال بالسواد، أراه شاسعا إلى أبعد الحدود.

ثلاجة ضخمة تنتصب في إحدى جنباته مليئة بالمؤن الكافية لتمضية فصل الشتاء دون مشقة، وأسند ظهري إلى بابه المنكّل. أحيانا أرفع ناظريّ ساهية عن موقد الطبخ الملطخ بالشحم أو عن السكاكين الصدئة، وإذًا في الجانب الآخر من زجاج النافذة، تبرق النجوم حزينة.

يبقى المطبخ وأنا. إذ يبدو لي أن في هذه الخاطرة من السلوان ما يفوق اعترافي لذاتي بأنني وحيدة.

حين أكون مرهقة تماما أفكر، بشيء من الابتهاج، أنني عندما تحين ساعتي أود أن ألفظ أنفاسي الأخيرة في مطبخي. وحيدة في البرد أو في الدفء، بصحبة أحد ما، أود

أن أمــثل أمــام هذه اللحظة دون ارتعــاش. والمطبخ هو المكان المثالي لمثل هذا الأمر.

قبل أن يستضيفني آل تاناب، كنت أنام في المطبخ كل يوم.

كان نومي مضطربا أينما أستلقي، وخلال تجوالي من غرفتي إلى بقـية أنحـاء البيت بحـثا عن مكان يريحنـي، اكتشـفت ذات صبـاح، عند الفـجر، أن النوم بقرب الثـلاجة أكثر راحـة حيث استغرقت في رقاد هادئ.

أدعى ميكاج ساكوراي، توفي والديّ، الواحد تلو الآخر، في عـز شـبـابهـمـا، فـرباني جـدّاي. ومـا أن بلغت مـرحلة الدراسـة الثـانوية حـتى توفي جـدّي، فـاسـتطعنا (جـدتي وأنـا) أن نتـدبر أمورنا.

ثم، ذلك اليوم، توفيت هي، بدورها، فأصبت بصدمة.

لقـد تسنى لي أن أحظى بما يسـمى عـائلة، ولكن، مع الأيام تضـاءلت رويدا، ثم أدركت فـجأة أنني أصبحت وحيدة في هذا البيـت، وأصبح كل ما يحيط بي أجوف لا حياة فيه. في الغـرفة التي ترعـرعت فـيهـا، كان الوقت ينقـضي وكـأن شـيـئـا لم يكن، ولكن لدهشتي العظيمة، لم يبق أحد سواي.

كأنها حكاية خرافية من نسج الخيال، عتمة الكواكب.

أمضيت الأيام الثلاثة التي تلت مراسم الدفن هـائمة مشوشة الذهن.

أجـرجـر خلفي، بعناية، ذلك النعـاس الناعـم الناجم عن حـزن بلا دمـوع، ووضـعت فـراشـي في المطبـخ المضـاء بالصـمت، وهنـاك نمت كـما ينـام «لينوس»، مكومـة على ذاتي كـالكرة، تحت الغطاء،

كان هدير الثلاجة يحميني من الإحساس بالوحشة وبعد ليل طويل هادئ طلع الصباح.

ما أردته، ببساطة، هو أن أنام في عراء النجوم.

أن أستيقظ في وضح النهار.

وكل شيء آخر يمضي دون عناء.

ولكن، لم يكن بوسعي أن أبقى على هذه الحالة إلى الأبد. فالواقع لايرحم.

كانت جدتي قد تركت لي، بالطبع، مبلغا من المال، غير أن الشقة كانت كبيرة جدا، عليّ وحدي، وباهظة التكلفة. وكان علي أن أبحث عن سكن آخر.

ذهبت، مرغمة، لشراء جريدة خاصة بالإعلانات العقارية وتصفحتها، ولكن لفرط ما حدقت بهذه الغرف المتشابهة المصطفة كعقد البصل، أحسست بدوار، فالانتقال من مسكن إلى آخر يتطلب الكثير من الوقت، والكثير من الطاقة.

غير أني لم أكن على ما يرام، والنوم ليلا نهارا في المطبخ أورثني تيبسا في الأطراف.. فكيف لي أن أرفع رأسي، الذي لا منفعة كبيرة منه، عن الوسادة بقصد معاينة الشقق! أو من أين لي الطاقة على نقل حاجياتي! أو وصل اشتراك الهاتف!

كنت على هذه الحال من اليأس التام لا أغادر سريري، مقلبة كل الظروف المعاكسة الممكنة، أو التي يمكن تخيلها، عندما زارتني المعجزة، جاهزة، ذات يوم بعد الظهر وأذكر ذلك اليوم جيدا.

«درنغ، درنغ!» قرع جرس المدخل فجأة.

كان بعد ظهر يوم ربيعي غائم قليلا، وكنت في أثناء ذلك - وقدَ أتعبني تصفح الإعلانات المبوبة - منهمكة في ربط رزم المجلات ما دام الانتقال محتما علي. هرعت نصف عارية ودون تفكير أدرت المفتاح في المزلاج لكي أفتح الباب (لحسن الطالع أنه لم يكن لصا). وإذا بي أقف وجها لوجه أمام يويشي تاناب.

«أشكرك على ذاك اليوم» قلتُ. هذا الفتى الذي يصغرني عاما واحدا، قد أعانني كثيرا خلال مراسم الدفن. كنت أعلم أنه طالب في الجامعة نفسها! ولكني، منذ بعض الوقت، ما عدت أتردد على المحاضرات.

- «لا شكر على واجب، أجاب. هل وجدتِ سكنا؟»

- «لا شيء إلى الآن» وابتسمت.

- «هذا ما حسبته!»

- «ألا تريد أن تدخل لاحتساء الشاي؟»

- لا.. شكرا. مررت لألقي التحية، فإني على عجلة من أمري. وابتسم بدوره.

«وددت فقط أن أطلعك على أمر. لقد ناقشت الموضوع مع أمي. فنحن نتساءل إن كنت لا تمانعين في السكن معنا لبعض الوقت...»

- «معكم؟»

- «اسمعي، ليس عليك إلا أن تعرجي علينا هذا المساء، نحو السابعة... وهذا رسم الطريق لكي تهتدي إلى المنزل.

- «آه، حقا؟» وأخذت الورقة منه بشرود.

- «إذًا يا ميكاج، إني أتّكل عليك! إن هذا الأمر يسعدنا

كثيرا، أمي وأنا...» وضحك ضحكة ملؤها الغبطة، في هذه الردحة ذات الطابع الأليف، حتى بدت لي حدقتاه أكثر قربا ، فما استطعت أن أبعد ناظري عنهما. ربما ذلك، أيضا لأنه ناداني فجأة باسمي.

«حسنا، بأية حال، سآتي هذا المساء»

ولكن ما الذي دهاني، أهو سحر أصابني؟ على الرغم من أن تصرف يويشي كان بعيدا عن التكلفة، مما أوحى إلي بالثقة. وكعادتي حين أشعر بأنني مسحورة ارتسمت طريقا أمامي في العتمة. وبدا لي لامع البياض، فجاءت إجابتي تلقائية. «إلى اللقاء» قال ذلك وغادر مبتسما.

قبل مراسم الدفن، كنت بالكاد أعرفه. وفي ذلك اليوم ظهر أمامي فجأة فرحت أتساءل حقا عما إذا كان عشيق جدتي، انحنى أمام أعواد البخور التي أشعلها، مغمض العينين، منتفخ الجفون، لشدة ما بكى، مرتجف اليدين، ولحظة وقوفه خاشعا أمام صورة الفقيدة، سالت قطرات كبيرة من الدموع من على وجنتيه.

ما إن رأيت ذلك حتى راودتني هذه الخاطرة: ألا يبدو أكثر مني تعلقا بجدتي؟ لقد بدا لي حزينا جدا.

في نهاية مراسم الدفن اقترب مني ماسحا عينيه بمنديل وقال: «أود أن أفعل شيئا لأساعدك». لذا طلبت منه، فيما بعد، أن يؤدي لي جميع أنواع الخدمات.

يويشي تاناب.

متى سمعت هذا الاسم على لسان جدتي؟ لابد أنني كنت في

حال تشوش ذهني شديد، لأنني لم أتذكر إلا بعد وقت.

كان يعمل نصف دوام لدى بائع الزهور الذي تقصد جدتي حانوته بانتظام.

وتذكرت بالفعل أنني سمعتها مرارا تقول: «إنه لطيف جدا، ذاك الفتى تاناب، تعرفينه جيدا: اليوم أيضا...» وبما أنها تعشق الأزهار ولا تغفل تزيين المطبخ بباقة منها، فقد اعتادت أن تشتريها مرتين في الأسبوع على الأقل. لا بل اعتقد أنه اصطحبها ذات يوم إلى المنزل حاملا لها أصيص زهور ضخم.

كان فتى خدوما، جميل الطلعة. وكنت لا أعرف شيئا عنه ولكن تراءى لي أنني غالبا ما كنت أراه لدى بائع الزهور منهمكا بعمله. ولمحته مرارا بعدها بصحبة جدتي، ولكني لا أدري لماذا لم أكف يوما عن اعتباره شخصا على شيء من «الفتور».. فعلى الرغم من لطفه البالغ في نغمة صوته وسلوكه، كان انطباعي عنه أنه يعيش في عالمه الخاص.

باختصار لم أكن أعرفه أكثر من ذلك، فقد كان أشبه بالغريب بالنسبة لي.

كان المطر ينزل في تلك الأمسية. مطر هامس دافيء يغشى الليل الربيعي بضباب شفيف ويكسو الشوارع التي أسير فيها حاملة المخطط المرسوم بيدي.

تقع عمارة آل تاناب بالضبط في الجهة المقابلة من حديقة «شوو». وفيما كنت أعبرها كاد تدفق أوراق الأغصان الليلي يخنقني. وكنت أسير على الدرب اللامع بالرطوبة، متخبطة في نقح المياه وانعكاساته القزحية.

الحق يقال أنني قصدت منزل آل تاناب لأنهم عرضوا علي أن أفعل، لاأكثر. ولم تكن لدي أية فكرة مسبقة.

وإذ رفعت ناظري نحو قمة مبناهم، بدا لي الطابق التاسع، حيث يقيمون، عالي جدا، وفكرت أنه لابد أن يكون المنظر من هناك رائعا خلال الليل.

وما أن غادرت المصعد حتى سلكت الرواق وكنت مرتبكة قليلا لصدى خطواتي. وبالكاد لمست زر الجرس ففتح يويشي الباب: «أهلا بك» قال.

بعد أن شكرته، دخلت وإذا بي أكتشف مكانا غريبا بعض الشيء.

لفتني في البداية منظر كنبة عملاقة في صدر الصالة. كانت الكنبة ماثلة هناك مولية ظهرها لرفوف الأواني التي تتبعت بعيني اصطفافها في المطبخ الكبير، ولم يكن هناك أي شيء آخر، لا طاولة، لا سجادة، مغطاة بقماش بيج كأنها الكنبة التي نشاهدها في الإعلانات التلفزيونية، كتلك التي تحتلها العائلة بأكملها لمشاهدة التلفزيون، وإلى جانبها كلب لا تتلاءم ضخامة حجمه مع ما هو شائع في اليابان، باختصار كانت كنبة خرافية.

أمام الواجهة الزجاجية المطلة على الشرفة، صفت أنواع لا تحصى من أصص وأحواض النباتات، حيث تحسب أنك أمام غابة، والحقيقة أن نظرة متأنية للشقة تولد انطباعا بأن الشقة تكاد تنهدم تحت ثقل الأزهار تلك، أزهار الموسم الموزعة في مزهريات ذات أشكال وأحجام بالغة التنوع.

«ستحاول أمي التملص من عملها لتعرج علينا في إطلالة خاطفة، ولكن بانتظار قدومها.. بإمكاني أن أطوف بك في أرجاء الشقة... ما هي الأشياء التي تنطلقين منها لتكوين فكرة؟ سألني يويشي وهو يعد الشاي.

- أية فكرة؟ أجبته وأنا أجلس على الكنبة الرخوة.

- بشأن البيت وأذواق قاطنيه، فأنت تعلمين أن هناك من ينطلقون من حال الحمام مثلا...»

كان من صنف الناس الذين يتكلمون بهدوء مبتسمين بارتياح، بلا مبالاة.

- «المهم عندي هو المطبخ»

- «المطبخ هنا. ليس عليك إلا أن تعاينيه»، قال.

مررت من وراء ظهره فيما كان منكبا على إعداد الشاي، وعاينت المطبخ.

بساط جميل يغطي الأرضية، خفان من الصنف الجيد ينتعلها يويشي، ثم أدوات مطبخ - فقط ما يلزم منها لا أكثر - معلقة بالترتيب على الجدار، ويبدو أنها قد استعملت بإفراط، هناك مقلاة ماركة «سيلفرستون» وقشارة خضار صنع ألمانيا، هي نفسها التي استعملها، لقد كانت جدتي، بفضل كسلها، فرحة جدا بها لأنها ستتمكن أخيرا من التقشير دون تعب.

تحت ضوء أنبوب فلوري صغير، كانت الكؤوس لامعة فيما الأطباق تنتظر دورها، وعلى الرغم من مظهرها غير المتجانس، فقد كانت من الصنف الممتاز. ثم ما أعجبني أيضا أن لديهم أوعية لكل استخدام: قصعات كبيرة من الفخار للأرز، وأطباق

بريشة، وأطباق ضخمة، وأكواب بيرة ذات أغطية... وفي الثلاجة التي سمح لي يويشي بفتحها، كانت الأشياء مرتبة في أماكنها وبتوزيع رائع.

أتممت جولتي وأنا أهز برأسي تعبيرا عن الرضا. إن هذا هو المطبخ حقا! وأغرمت به من النظرة الأولى.

عندما عدت للجلوس على الكنبة، قدم لي يويشي شايا ساخنا.

في هذه الشقة المجهولة التي اكتشفتها لتوي وقبالة هذا الفتى، الذي بالكاد أعرفه، أحسست فجأة بوحدة مخيفة.

صادف نظري انعكاس صورتي على الواجهة الزجاجية المطلة على المنظر الليلي المكسو بالمطر، كأن صورتي تغرق في الظلمات.

لم يعد لي أي قريب على هذه الأرض، وأصبحت لي حريتي المطلقة في أن أذهب حيثما أريد، وأن أفعل ما أشاء، إذ يمكن القول في آخر الأمر، يا له من ترف!

إن العالم شاسع بشكل غير معقول، والعتمة حالكة السواد... لقد أتيحت لي الفرصة في الآونة الأخيرة أن ألمس بإصبعي وبعيني، وللمرة الأولى، سحرهما وكآبتهما اللذين لا حد لهما. حتى الآن، لم أر العالم إلا بعين واحدة، قلت في سري.

«بالمناسبة، لما طلبت مني المجيء؟» سألت.

- «لأنني فكرت أنك تواجهين أوضاعا صعبة، أجاب بلطف مع غض بصره. لقد كنت أحب جدتك كثيرا، ثم،

كـمـا تريـن، لدينا هنا مـتـسـع من الأمـاكـن . وبـأية حـال، ألسـت مضطرة لترك شقتك؟»...

- «بلـى... ولكن في الوقت الحـاضـر أمـهلني المالك بعض الوقت الإضافي».

- «لـذا قلت لنفـسي إنـه بوسـعك المجـيء إلـى هنـا»، أردف قائلا، وكأنه يدلي بأشد الأقوال بداهة.

لقـد بدا لـي هذا الموقف غـيـر المفـرط لا فـي حـرارته ولا في فتوره، مطمئنا ومعزيا بالفعل، نظرا للحـالة التي كنـت عليـهـا. لا أدري لماذا، ولكن ثمـة فـي الأمـر مـا أثر فـي عـمـيـقـا وجعلني على حـافـة البكاء. وفي تلك اللحظة بالذات فـتح البـاب بشـيء من الصـخب، ودخلت منـه امرأة رائعة الجمـال مسرعة متلاحقة الأنفاس.

لبـثت جـاحظة العـينين لشـدة ذهولي. لم تبـد لـي فـتـيـَّة، لكن جـمـالهـا باهر. وأدركت على الفـور من مـلابسـهـا الغـريبـة وماكياجها السميك أن عملها له صلة بالحياة الليلية.

قـدمنـي يويشـي قـائلا هذه «مـيـكاج سـاكـوري» وقـالـت لي مبـتسـمة وهي مـا زالـت تلهث، وبصوت أبـح قلـيـلا: «تشـرفنا، أنا والدة يويشي، أدعى أريكو».

هذه، أم؟ أكثر من مجـرد ذهـول أصابني، إذ مكثت أحدق بها، لا أحيد بناظري عنها.. بشـعـرها الأملس المتهدل على الكتفين، وعينيها اللوزيتين العميقتين الغور، وشفتيها المرسومتين بدقة، وأنفها المسـتقيم الدقيق.. وتلك الهـالة من الضـوء التـي تنبعث منها فتبدو في نـاظري نبض الحيـاة بـالذات، كـأنها ليـست من

هذا العالم، ذلك أني لم أر امرأة مثلها من قبل.

لم أستطع في غمرة دهشتي وتحديقي بها، بطريقة تكاد تكون غير لبقة، إلا أن أرد بابتسامة هامسة بدوري: «تشرفنا».

- «إني واثقة من أننا سنتوافق» قالت لي بلطف قبل أن تلتفت إلى ابنها: «اعذرني يا يويشي، لن أتمكن من البقاء معكما. لقد تذرعت بحاجتي للذهاب إلى دورة المياه فاستطعت أن أعرج عليكما لثوان. لثوان فقط. غدا صباحا لدي المتسع من الوقت. لا تترك ميكاج تغادر هذه الليلة»، قالت كل هذا بنفس واحد قبل أن تستدير بفستانها الأحمر وتهرع باتجاه الباب.

«انتظري سوف أنقلك بالسيارة»، قال يويشي.

«إني آسفة: كل هذا الإزعاج من أجلي»، قلت.

«لا، أبدا على الإطلاق، لم أتوقع أن أستقبل مثل هذا العدد من الناس هذا المساء، أنا من ينبغي أن يعتذر. حسنا إلى الغد صباحا»

وقبل أن تنتهي عبارتها كانت تهرع راكضة بكعبيها العاليين، فيما يردف يويشي قائلا: «بإمكانك مشاهدة التليفزيون في انتظار عودتي» ولحق بها مسرعا، أما أنا فقد بقيت هناك غير مدركة لما يجري من حولي.

... عندما نمعن النظر عن كثب، تظهر، بالطبع، بعض التجاعيد العادية في مثل سنها، أو نلاحظ التواء بعض أسنانها عند المنابت، باختصار، يمكن القول إن لديها بعض العيوب التي تجعلها من طينة البشر. ولكن، على الرغم من كل شيء، كانت

امرأة فاتنة. وأحسست برغبة عارمة في أن أراها مجددا. فكانت في صميم قلبي صورة باقية ينبعث منها نور دافيء يلتمع برفق، وقلت في سري: «تلك هي الفتنة!»، وكما لو كنت هيلين كيلر حين اكتشفت المياه أحسست بهذه الكلمة تتضح أمام ناظري كأنها شيء حي. لست أبالغ، لكنه حقا لقاء مذهل.

عاد يويشي مصحوبا بطقطقة مفاتيح السيارة.

- «إن كان لديها عشر دقائق فقط، كان الأحرى بها أن تتصل هاتفيا»، قال وهو يخلع خفيه عند الباب.

- «أو تظن؟» أجبته من مكاني الذي لم أبارحه على الكنبة.

- «إذا، هل أعجبتك أمي يا ميكاج؟» سألني.

- «بالطبع إنها رائعة الجمال». قلت بحماسة ظاهرة.

- «هذا أمر طبيعي» واقترب مني ضاحكا، ثم جلس على الأرض قبالتي. «بفضل جراحة التجميل»

- «حقا؟» قلت بنبرة هدوء مزيفة: كنت أحدث نفسي بأن لا شبه بينكما على الإطلاق.

- «ثم لابد أنك لاحظت.. أليس كذلك؟» أردف قائلا وهو يكتم ضحكته بصعوبة «أوتعلمين أنها رجل!»

هذه المرة، طفح الكيل. ورحت أحدق بوجهه جاحظة العينين. كنت على استعداد تام لانتظار الوقت الكافي، شرط أن يقول لي إنها مجرد دعابة. تلك الأصابع الرقيقة، تلك الحركات، تلك المشية؟ كنت انتظر، وفي ذهني صورة ذلك الجمال، وقد نفذ صبري، غير أنه لم يحرك ساكنا وقد بدت سيماء الغبطة على وجهه.

«ولكن..» وفتحت فمي أخيرا. «لكنك قلت لي... قلت لي إنها

أمك!!

- «اسمعيني، تخيلي نفسك في مكاني. بصراحة، أبوسعك أن تتحدثي عن رجل كهذا بوصفه أبا؟» «أجابني بهدوء. والواقع أنه كان محقا في ما يقول. وبدا لي جوابه مقنعا «ولكن اسمه، أليس اسمه أريكو؟»

- «وهذه أيضا أكذوبة! في الحقيقة أنه يدعى يوجي»

انتابني الشعور فجأة أن كل ما حولي بياض ببياض. وعندما أفقت من تشوشي طرحت عليه سؤالا:

«ولكن، من أنجبك إذاً؟»

- «فيما مضى كان رجلا كغيره من الرجال. وفي صباه تزوج. وأمي الحقيقية هي زوجته»

وإذ بدا لي الأمر يفوق قدرتي على التصور، سألته: «وهي كيف كانت؟»

- «لا أذكرها جيدا. لقد توفيت في صغري. لدي صورة لها، أتودين رؤيتها؟»

- «أجل»

حين أجبته بنعم، جذب حقيبته نحوه دون أن ينهض، وأعطاني صورة قديمة سحبها من حافظة نقوده.

كان وجهها غير محدد الملامح، ولها شعر قصير، وعينان صغيرتان، وأنف منمنم. امرأة لا عمر لها، وفي سيمائها ما يثير الفضول... وبما أنني لزمت الصمت بادر إلى القول: «تبدو على شيء من الغرابة، أليس كذلك؟ فضحكت لحيرتي بماذا أجيب.

«لقد عهد بـ أريكو - أو الأحرى يويشي - منذ طفولته، ولسبب أجهله إلى أهل أمي، والظاهر أنهما ترعرعا سويا وهو كرجل أيضا على قدر من الجمال وأعتقد أنه كانت له حظوة لدى النساء، لذا أتساءل دائما لماذا... عندما نرى هذا الوجه الغريب»، وابتسم محدقا بالصورة «لقد كان شديد التعلق بأمي لدرجة أنهما هربا معا، على الرغم من كل ما يدين به لعائلتها».

كنت أصغي وأهز برأسي.

«إثر وفاة أمي، توقف عن العمل، وبما أنني كنت لا أزال طفلا وهو لايدري ماذا يفعل، قرر أن يصبح امرأة لأنه يدرك تماما أنه لن يغرم مرة أخرى. قبل أن يبدل جنسه يبدو أنه كان رجلا مقلا جدا في الكلام ولم يكن يحب أنصاف الحلول، لذا عمدإلى تبني شخصية جديدة قلبا وقالبا، وبما تبقى له من مال فتح حانوتا ورباني. أتعتقدين أن في مثل هذه الحال أيضا، يمكن استعمال الوصف «أم شجاعة»؟

وراح يضحك.

«إنها لحياة مذهلة تلك التي عاشتها!» قلت، أجابني: «ولكنها لم تمت بعد».

هل لي أن أصدق كل هذا؟ هل يخبئان لي المزيد من المفاجآت؟ فكلما ازددت معرفة بتفاصيل حياتهما، ازدادت الصورة غموضا في عيني.

ولكن بإمكاني أن أثق بالمطبخ. ثم ان الشبه الوحيد بين الأم وهذا الابن اللذين لا شبه آخر بينهما هو أنهما حين يضحكان يتألق

وجهاهما بنور يذكرني بتماثيل بوذا. وهذا ما أعجبني كثيرا فيهما.

«غدا صباحا لن أكون هنا، ولكن لا تترددي في اعتبار البيت بيتك»

أحضر لي يويشي الذي غلبه النعاس، غطاء وبيجاما، وشرح لي كيفية استخدام الدوش وأين أعثر على المناشف، وتفاصيل أخرى من هذا القبيل.

بعد سماع قصة والدته (المذهلة بالفعل)، تابعت دون التفكير في أمور مهمة ثرثرتي مع يويشي عن بائع الزهور وجدتي، فيما نشاهد بلا مبالاة أحداث فيلم فيديو، فمر الوقت بسرعة. أصبحت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت الكنبة مريحة بالفعل ورخوة وعميقة وواسعة، حتى أنك إذا تمددت عليها أصبح مستحيلا عليك أن تنهض منها.

«للمناسبة، قلت، أراهنك بأن أمك خلال تجوالها بالمصادفة في قسم المفروشات في أحد المخازن الكبرى، جلست على هذه الكنبة واشترتها على الفور تلبية لنزوة!»

«كسبت الرهان». أجاب، «إنها من طينة الناس الذين يتبعون دائما أهواءهم وما أراه رائعا فيها أن لديها القدرة على تحقيقها»

«وهذا رأيي أيضا»

-«على أية حال، هذه الكنبة لك الآن، إنها سريرك وإني لمسرور جدا، لأنها مفيدة لأمر ما»

- «صحيح...»، غمغمت قائلة بشيء من الخجل. «أبإمكاني أن أنام هنا؟»

- «بالتأكيد»، أجاب قائلا.

- «شكرا لك»، قلت.

وبعد أن زودني بالشروحات اللازمة كلها، تمنى لي يويشي أن أمضي ليلة هانئة وذهب إلى غرفته.

أنا أيضا غلبني النعاس.

سألت نفسي خلال استحمامي في هذا البيت الذي ليس بيتي، ما الذي أفعله هنا، فيما المياه الساخنة، وللمرة الأولى منذ وقت طويل، تبلل تعبي شيئا فشيئا.

ارتديت البيجاما التي أعارني إياها يويشي وعدت إلى الصالة الغارقة في الصمت حافية القدمين. قصدت المطبخ لأزوره مرة ثانية. ما زال كما كان. ما زال يعجبني.

بعد ذلك تمددت على الكنبة التي أصبحت سريري وأطفأت النور.

كانت النباتات على طول الواجهة الزجاجية ترتسم أصيلة في ظلمة الغرفة وتتنفس الهوينا، كأنها جزء من المشهد الليلي الرائع. مشهد ليل بكل انعكاساته الخرافية، تبرق نيرانه في الهواء الرائق والمضبب لما بعد المطر.

التحفت بالغطاء جيدا وضحكت، وحدي، ليقيني أنني الليلة أيضا سأنام قرب مطبخ. مع أنني لا أشعر بأي إحساس بالوحدة. فقد يكون في آخر الأمر أنني انتظرت بكل ما في من رغبة، أمرا وحيدا، ربما أكون انتظرت سريرا لأنسى، ولو لهنيهات، كل ما جرى حتى ذلك الحين، كل ما سيحصل في المستقبل، عندما تكون قريبا من أحد ما، تشعر أنك أكثر

وحدة، ولكن هنا... هناك مطبخ ونباتات وحضور تحت السقف نفسه، وهناك كل هذه السكينة... إنه وضع مثالي. مكان مثالي.

فنمت هانئة.

أيقظتني جلبة انسكاب ماء.

كان الصباح هنا متلألئا.

نهضت عن الكنبة والنعاس يغالب أجفاني، فلمحت «أريكو» من الخلف، في المطبخ، وما أن استدارت لتبادرني بتحية الصباح، تنبهت إلى أن الثوب الذي ترتديه، وهو أكثر بساطة من ثوب الليلة الفائتة، يجعل وجهها أكثر تألقا فأيقظني ما رأيت على الفور.

«صباح الخير» قلت لها وأنا أنهض، ولاحظت أنها تعاين الثلاجة بشيء من الخيبة. قالت وهي ترمقني: «عادة أكون في السرير في مثل هذه الساعة، ولكن هذا الصباح أشعر بالجوع ولا أدري لماذا... لكني لا أجد شيئا يؤكل في هذا البيت. سأطلب وجبة جاهزة... ماذا تودين أن تأكلي؟»

- «بإمكاني أن أعد شيئا ما، إذا شئت»، قلت وأنا أقترب منها.

- «حقا؟» وأردفت قائلة بشيء من القلق: «وهل تعتقدين أنك قادرة وأنت نصف نائمة على استعمال سكين مطبخ؟

- «لا تقلقي بهذا الشأن»

كانت الحجرة مضاءة بأشعة الشمس كأنها منتجع صحي. ومن الواجهة الزجاجية منظر ممتد لسماء زرقاء بألوان قطيفة

باهرة لا حد لها.

كانت سعادتي الكبيرة في التواجد في هذا المطبخ الذي أعجبني سببا في أن أشعر بصفاء السريرة، فتذكرت فجأة أن أريكو رجل.

ودونما قصد مني شملتها بنظراتي، فاستبد بي الإحساس بأن ما أراه ليس جديدا علي.

في الضوء الصباحي المتدفق كانت تشيع في المكان رائحة خشب زكية، أريكو مستلقية باسترخاء فوق أرائك وضعت بسوية الأرض المغبرة، تشاهد التلفزيون، وإذا بذلك المشهد يولد فيّ إحساسا طاغيا بالحنين.

أكلت أريكو بشهية حساء الأرز بالبيض وسلطة الخيار التي أعددتها.

كانت تتناهى بين الحين والآخر أصوات أولاد يتصايحون في حديقة العمارة، وكان الطقس ربيعيا، في عز الظهيرة.

على طول الواجهة الزجاجية، تتألق النباتات بخضرة لامعة وقد أغرقتها أشعة الشمس اللطيفة، وفي البعيد، في مدى السماء الزرقاء، تعبر سحب شفيفة، على مهل.

كان نهارا وادعا ودافئا.

وها أنذا أتناول طعام الفطور المتأخر بصحبة شخص بالكاد أعرفه... حتى عشية الأمس، كيف لي أن أتخيل هذا المشهد؟ كم أشعر بأنه مشهد مستهجن.

لم تكن هناك طاولة، فأكلنا على الأرض فيما أشعة الشمس التي تخترق زجاج الكؤوس الشفيف، ترسم على الأرض ظلا

أخضر راعنا ومتراقصا للشاي الياباني المثلج.

«أوتدرين ما قال لي يويشي؟»... بادرتني أريكو بالقول فجأة وهي ترمقني بنظرات متأنية،... كان يقول لي دائما إنك تشبهين نونتشان الذي عاش معنا فيما مضى. في الحقيقة أنه محق فعلا!

- «ومن يكون نونتشان هذا؟»

- «إنه كلب»

«آه».. توتو(*)

«أجل، لك نفس العينين ونفس الشعر... أمس عندما رأيتك للمرة الأولى أؤكد لك أنني كدت أغص من الضحك!»

- «حقا؟» قلت في سري، آمل على الأقل، ألا يكون سان - برنار(**) أو شيئا من هذا القبيل.

«إثر موت نونتشان، امتنع يويشي عن تناول الطعام، واعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعله مهتما بما يحصل لك. ولكن بين هذا الشعور وبين الحب الحقيقي...»

وضحكت بشيء من التحفظ.

«إن لطفه يؤثر في عميقا»، قلت.

- «يبدو أن جدتك كانت تعطف عليه»

- «أجل كانت تحب يويشي كثيرا»

- «أوتعلمين أنني قصرت في العناية بهذا الصبي، ولذا فاتني الكثير!»

(*) الكلب بلغة الأطفال

(**) كلب ضخم ذكي.

- «فاتك؟»

واستغرقتُ في الضحك.

«أجل، قالت بابتسامة أم، إن عواطفه غير متوقعة، ثم إنه في علاقاته مع الناس يحفظ مسافة ما، باختصار، يمكن القول إن هناك عددا من الأمور ليست على ما يرام، ولكني أردت أن أجعل منه شخصا لطيفا، ولم أقصر في هذا المجال، لأن بإمكاني أن أؤكد لك بأنه شخص لطيف»

- «أجل، أعرف جيدا»

- «وأنت لطيفة أيضا!»

كانت - أو الأحرى كان - تبتسم، ابتسامة هشة تذكر بابتسامة «شذاذ» نيويورك الذين نراهم غالبا على شاشة التلفزيون. ومع ذلك تمتلك أريكو من القوة ما يجعلها بعيدة الشبه عنهم إذ تتألق بسحر عميق، سحر أوصلها دفعة واحدة إلى ما هي عليه الآن. وأعتقد أن لا الزوجة المتوفية ولا الابن ولا هي نفسها، كان بإمكانهم أن يوقفوا تلك الانطلاقة. فهناك في أعماقها ذلك الحزن الخفي والجبار الذي يصاحب كل هذا.

أردفت قائلة وهي تقضم قطع الخيار: «أنت تعلمين أن الناس قد يقولون هذا دون أن يقصدوا كلمة واحدة مما يقولون، ولكن بصدق أقول إنك تستطيعين البقاء هنا قدر ما تشائين. أعلم أنك فتاة صالحة، وأنا سعيدة فعلا لوجودك معنا. لعل أقسى ما يواجهنا حين لا نعثر على مكان نلجأ إليه في أوقات تعاستنا!» وأردفت قائلة وهي تحدق مباشرة بعيني، كما لو أنها تريد إقناعي: لا ترتبكي، تصرفي كأنك في بيتك. عديني أنك

ستفعلين!»

أحسست بغصة في القلب وقلت بمشقة كبيرة: «على الأقل، اصر أن أسدد مبلغا ما مقابل الغرفة. إذا تسمحين، فأنا أود ان أنام هنا إلى أن أجد مسكنا آخر».

- «هيا، دعك من هذا الأمر، كل ما أطلبه منك أن تعدي لي حساء الأرز من وقت إلى آخر، فالحساء الذي تعدينه أشهى بكثير من ذلك الذي يعده يويشي»، أجابت ضاحكة.

أن تحيا وحيدا مع شخص مسن، أمر مقلق إلى أبعد الحدود وأشد قلقا منه أيضا أن يكون الشخص المسن في صحة جيدة، والحقيقة أنني حين كنت لا أزال مع جدتي كنت لا مبالية ولم أكن أدرك ما أقوله الآن، ولكني اليوم، وبعد مرور الوقت، أعي هذا الواقع.

كنت أخاف دائما، أخاف دوما أن تموت جدتي.

حين أعود إلى البيت تخرج من غرفتها - حيث تشاهد التلفزيون - لاستقبالي، وكنت أحضر لها معي الحلويات كلما تأخرت في العودة. كانت جدتي مثال الطيبة، لا تغضب أبدا شرط أن أبلغها سلفا، حتى لو بقيت لقضاء الليلة في مكان آخر. وقبل أن يتوجه كل منا إلى فراشه كنا نجلس سويا لبعض الوقت أمام التلفزيون نأكل الحلوى ونحتسي القهوة حينا أو الشاي الياباني حينا آخر.

في غرفتها لم يتبدل فيها شيء منذ طفولتي، كنا نتحادث عن كل شيء وعن لا شيء، كلام أشبه بثرثرة استراحة ما بين عرض مسرحيتين، حول ما جرى خلال النهار، وأظن أنها كانت

تحدثني أحيانا عن يويشي في مثل تلك الأوقات.

حتى في أوقات الوله غراما، وحتى حين يقتضي السكر أو الفرح، كنت في أعماقي لا أكف عن التفكير فيها، فهي كل ما تبقى لي من العائلة.

في حياة مشتركة لشخصين، طفل وعجوز، ثمة صمت طاغ ينبعث من كل ركن من أركان البيت، حزن مجفل، فراغ يستحيل ملؤه حتى ولو كانت تلك الحياة الأكثر سعادة. وقد خبرت ذلك وأدركته في سن مبكرة نسبيا، دونما حاجة لمن يفسره لي.

لابد أن الأمر مماثل في حياة يويشي.

فعندما يسلك أحدنا دربا جبليا مظلما مقفرا، لا يستطيع آنذاك إلا أن يعثر على النور الذي في ذات نفسه. ترى في أي سن أدركت ذلك؟

لقد ترعرعت في مناخ من العطف، ومع ذلك كان الحزن ماثلا في على الدوام.

... كل إنسان مدعو ذات يوم إلى الفناء وإلى التلاشي في كنف ظلمات الزمان.

وتراودنا تلك الخاطرة ملحاحة حتى أنها تقرأ في أعيننا، وربما كان من الطبيعي أن يستجيب يويشي إلى أمر تنبه إليه في.

... وهكذا سلكت درب العيش كالطفيليات.

أجزت لنفسي فترة من التكاسل حتى شهر أيار وصارت أيامي لذيذة كأنها الفردوس.

تابعت عملي بنصف دوام، غير أنني سوى ذلك كنت أحيا

كربة منزل، موزعة المشاغل بين أعباء البيت ومشاهدة التلفزيون وصنع الحلويات المنزلية.

بجرعات صغيرة كان النور والهواء يتسربان إلى قلبي فأشعر بسعادة حقة.

وبما أن يويشي يوزع أوقاته بين محاضرات الجامعة وعمله لدى بائع الزهور، وبما أن أريكو تعمل طوال الليل، كان يندر جداً أن نلتقي نحن الثلاثة في الشقة.

أول الأمر، كنت أجد صعوبة بالغة في النوم وسط هذا المكان العاري الشاسع، وبما أنني كنت أقصد مسكني القديم لترتيب أغراضي، كانت تلك الروحات والغدوات تتعبني، لكنني سرعان ما اعتدت واقع الحال.

عند آل تاناب، أحببت الكنبة بمقدار ما أحببت المطبخ تقريبا، فقد كان باستطاعتي هناك أن أنعم بنوم عميق أخيرا، لا ألبث أن أغفو تهدهدني أنفاس الأزاهير والنباتات ويعانقني المشهد الليلي الذي أتخيله خلف الستائر.

كنت في أوج الدعة، فما الذي أبتغيه غير ذلك.

تلك هي حالي دوما، ما لم أكن في ضيق شديد، لا أقوى على الحركة. وهذه المرة أيضا، في ذروة الحرج الذي كنت فيه، عرض علي سرير دافيء، توجهت إلى الله بالحمد من أعماق قلبي.

ذات يوم، عدت إلى مسكني القديم لأرتب بعض الحاجيات المتبقية فيه.

كلما فتحت بابه تنتابني رعدة، فمنذ أن انتقلت منه بدا لي

أن هذا المكان قد تغير.

أصبح معتما، صامتا، لا حياة فيه، كأن كل ما أَلفْته فيه يجافيني وبدلا من أن أدخل صارخة: «ها أنذا» كنت أود أن أتسلل إليه خلسة اعتذاراً لما أسببه من إزعاج.

فمع موت جدتي، مات زمان ذلك البيت، هو أيضا.

كان إحساسي بذلك الموت جسديا، ولم يعد بيدي أي شيء أفعله، ما عساني فاعلة سوى أن أرحل عنه إلى الأبد... وإذا بي أمسح الغبار عن الثلاجة وأنا أدندن أغنية «ساعة جدي العتيقة».

في تلك الأثناء سمعت رنين الهاتف.

رفعت السماعة، كان سوتارو على الخط، كما توقعت.

كان سوتارو صديقي فيما مضى وانفصلنا عندما ساءت حال جدتي الصحية.

«آلو، أهذا أنت يا ميكاج؟» قال بصوت يكاد يبكيني لشدة حنيني إليه.

- «لقد مضى دهر كامل»، أجبته بحماسة تداري ما بي، فمثل ردود الفعل هذه لا تصدر لدي عن حياء أو كبرياء، إنها مرض.

«بما أني لم أرك في الكلية سألت عن أخبارك في كل مكان، وهكذا بلغني نبأ وفاة جدتك. كانت صدمة بالنسبة لي!... لابد أن الأمر كان قاسيا عليك؟»

- «أجل... لقد انهمكت كثيرا بما استجد»

- «أبإمكاننا أن نلتقي الآن؟»

- «حسنا»

فيما كنا نتناقش حول المكان المناسب للقائنا نظرت بعينين ساهمتين عبر النافذة:

في الخارج كان كل شيء رماديا كئيبا.

كانت الرياح تدفع موجات السحب فتهرب بتهور. في هذا العالم، ليس هناك أي شيء حزين.

كان سوتارو مولعا بالحدائق العامة.

لديه شغف بالمساحات الخضراء والمناظر الفسيحة والهواء الطلق، حتى في حرم الجامعة غالبا ما كان يرى جالسا على مقعد في الباحة أو إلى جانب ملعب الرياضة. وصار الشائع أن يقال عنه: إذا أردت أن تعثر على سوتارو ففتش عنه في المساحات الخضراء، والواضح أنه كان مصمما على العمل، فيما بعد، في أحد ميادين البستنة.

والواضح أيضا أنني لا أصادق إلا فتيانا محاطين بالنباتات.

عندما كانت حياتي لا تزال هانئة، وأمضي أوقاتي بصحبته - ذلك الفرح الوديع - كنا نشكل ثنائيا طلابيا مثاليا.. ونظرا لأذواقه غالبا ما نلتقي في الحديقة العامة، حتى في فصل الشتاء، ولكن بما أني كنت أشعر بالحرج من تأخري الدائم عن موعدي معه، اخترنا أخيرا، كحل وسط، أن نلتقي في مقهى فسيح الأرجاء يقع على مقربة من الحديقة المذكورة.

وكعادته في ما مضى، كان سوتارو جالسا إلى أقرب الطاولات إلى الحديقة ينتظرني مستغرقا في تأمل المنظر في الخارج.

خلف واجهة الزجاج، بدت الأشجار متمايلة مع الريح كالظلال على رقعة من سماء مكفهرة. دنوت منه مفسحة طريقي بين النادلات اللواتي يتنقلن في جميع الاتجاهات. وما أن رآني ابتسم.

وفيما كنت أهم بالجلوس قبالته، قلت: «أعتقد أنها ستمطر».

- «لا، سيصحو الطقس برأيي»، أجاب قائلا. «ولكن أليس باستطاعتنا أن نتحدث عن شيء آخر، بعد كل هذا الفراق؟»

ارتحت لوجهه البشوش. فإنها لمتعة حقا أن تحتسي الشاي، بعد الظهر، بصحبة أحد ما تعرف كل خصاله وعاداته. أنا أعرف مثلا أنه أثناء نومه يتخذ أوضاعا مضحكة، وأنه يمزج قهوته بكميات هائلة من الحليب والسكر، وأعرف أيضا صورة وجهه الذي يبدو رصينا منهمكا، عندما يبارز خصلات شعره الشعثاء بمجفف الشعر أمام المرآة. وقلت في سري: لو أننا ما زلنا سويا لما أمكنني أن أتحدث إليه بهذا القدر من الطلاقة والاطمئنان بسبب طلاء أظافري المقشر لشدة ما بذلت من جهد في تنظيف الثلاجة.

كنا نتبادل أطراف الحديث عن أي شيء وعن كل شيء، عندما قال سوتارو فجأة وكأنه تذكر أمرا ما: «للمناسبة، يبدو أنك الآن تقيمين في منزل تاناب».

صعقت لسماعي هذا.

كادت المفاجأة تسقط الفنجان من يدي وانسكب الشاي في الطبق الصغير.

«ما من حديث في الكلية سوى عن ذلك! جنون فعلي... أما كنت تعلمين؟» قال سوتارو مبتسما بحرج ظاهر.

- «بالطبع لا! حتى أني ما كنت أعلم أنك، أنت، تعلم! ماذا يقولون؟» سألته.

- «صديقة تاناب، أو بالأحرى، صديقته السابقة... صفعته في المطعم الجامعي أمام أعين الجميع!»

- «أحقا؟ وكان ذلك بسببي أنا؟»

-«أجل. على ما أعتقد. إذ يبدو أن الأمور تجري بينكما على خير مايرام. هذا ما قيل لي...»

- «حقا؟ خبر جديد...»

- «ولكن، هيا، أتعيشان سويا؟»

- «بلى، مع والدته، وهي بأية حال ليست والدته بالضبط»

- «ماذا؟ أهذه دعابة أم ماذا؟» قال سوتارو مستهجنا. فيما مضى كنت أعشق مرحه العفوي، ولكني الآن لا أشعر حيال هذا الجانب الصاخب فيه، إلا بحرج فظيع، قال هذا... تاناب غريب الأطوار؟ «بالمناسبة، يبدو تاناب غريب الأطوار؟» قال.

- «لا أدري... إني لا أراه كثيرا... ولا نتحادث إلا فيما ندر...

لم يفعل سوى أنه استضافني مثل كلب شارد.

ثم أنه ليس مصرا جدا على وجودي معه.

وبأية حال أنا لا أعرف عنه شيئا.

ومثل الحمقاء لم ألحظ حتى أنه يواجه المتاعب.

- «بأية حال لم أفهم يوما تركيبك العاطفي»، قال سوتارو.

«ومهما يكن، أظن أنه أمر جيد لك. إلى متى ستمكثين عندهما؟»

- «لا أدري»

- «ربما الأفضل لك أن تستيقظي!» قال ضاحكا.

- «سأحاول أن أفكر في الأمر» أجبته قائلة.

في طريق العودة سلكنا درب الحديقة. ومن خلال الأشجار بدا لنا المبنى الذي يقطنه آل تاناب.

«هنا أقيم»، قلت مشيرة إليه بيدي.

- «أنت محظوظة! إنه ملتصق بالحديقة، لو كنت أنا من يقيم هنا لاستيقظت كل يوم عند الخامسة صباحا للتنزه في أرجائها»

وضحك. كان طويل القامة، وكان علي أن أرفع عيني نحوه كلما أردت أن أنظر إلى وجهه. لو أننا ما زلنا سويا، قلت في سري بينما أحدق بجانب وجهه... لجال بي في كل مكان بحثا عن شقة جديدة، ولحثني على استئناف دراستي...

كم أحببت ذلك الجانب القويم من شخصيته. إنه أمر لطالما حسدته عليه، لا بل كنت في الماضي أكاد ألوم نفسي لأنني لا أضاهيه في ذلك.

إنه الولد البكر لعائلة عديدة الأفراد، وكانت تلك الحيوية التي يغمرني بها دون قصد منه حين يعود من زيارة أهله، تغمر قلبي دفئا.

ومع ذلك أشعر بأن ما أحتاجه في الوقت الحاضر هو ذلك المرح الغريب الذي يطبع بشخصية تاناب وذلك الهدوء الذي

ينم عن صفاء سريرة، ويبدو لي من المستحيل أن أشرح ذلك لسوتارو. وبأية حال لم يكن الأمر ضروريا، حقا. غير أني كلما رأيته شعرت بحزن لأنني كما أنا.

«إلى اللقاء إذا!»

سؤال ساذج أملاه علي الحنان الذي ما زال كامنا في أعماقي وعبرت عنه نظرتي إليه:

«أما زلت تحتفظ لي ولو بمحل صغير في قلبك؟»

التمعت عيناه بشاشة ملؤها استقامة، وقرأت في نظرتهما تباشير جواب:

«تشبثي بالحياة!»

- «سأحاول!» أجبت قائلة، وودعته بإشارة من يدي. فكل هذه المشاعر ستنأى بعيدا، بعيدا جدا، وتتلاشى.

مساء ذلك اليوم كنت أشاهد شريط فيديو عندما فتح باب المدخل، وأطل يويشي حاملا صندوقا كبيرا بين ذراعيه.

«مساء الخير!

لقد ابتعت معالج نصوص إلكترونيا!» قال بنبرة ابتهاج وكنت لاحظت في الآونة الأخيرة، بين أفراد هذه العائلة، شغف شبه مرضي بالمشتريات. والمفضلة منها الأشياء الكبيرة ذات الحجم. وخصوصا الآلات المنزلية الكهربائية.

«إنه رائع!» قلت.

- «أتريدين أن أطبع لك نصا؟»

- «لم لا...»

«لِمَ لا يكون نص أغنية؟» وفيما يراودني السؤال يقول: «لدي

فكرة.. سأطبع لك إعلان انتقال!»

- «وما هو إعلان انتقال هذا؟»

- «لا تقولي إنك ستواصلين العيش في هذه المدينة الكبيرة دون عنوان أو رقم هاتف؟»

- «أدرك ذلك، ولكني سأضطر إلى استبدال الإعلان بآخر عندما أنتقل من بيتكم، وهذا ما يزعجني!»

-«ما تقولين ليس طريفا على الإطلاق!...»

بدا لي محبطا بعض الشيء فقلت له: «حسنا، أكون شاكرة لو فعلت!» ثم عاودني كلام سوتارو فسألت: «ولكن قل بصراحة ألا يتسبب وجودي في أي متاعب؟ ألن يسبب لك إحراجا؟»

- «إحراجا؟ من أي نوع؟»

بدا لي وكأنه يحيا في عالم آخر. ولو كنت صديقته لصفعته بالتأكيد. غضبت منه لهنيهات غافلة عن حال التطفل التي أحياها. حقيقة، إنه لايدرك شيئا على الإطلاق!

«لقد نقلت لتوي مكان إقامتي. الرجاء الاتصال بي من الآن فصاعدا على العنوان التالي:

ميكاج ساكوري، وكتب لها تفاصيل عنوانه ورقم هاتفه.

وما أن أنهى يويشي طباعة نص الإعلان، استنسختها مرارا (فكما توقعت هناك آلة استنساخ في أحد أرجاء هذا المنزل)، وشرعت في كتابة العناوين التي سترسل إليها هذه البطاقات.

وراح يويشي يساعدني في ما أفعل، فالواضح أنه هذا المساء لا يجد ما يفعله، وكنت قد لاحظت أنه يكره أن يكون متبطلا.

الوقت، أشبه بصمت شفيف، يتقطر قطرة قطرة مع حفيف

أقلامنا على الورق وفي الخارج تعول رياح دافئة، أشبه بعاصفة ربيعية. حتى المشهد الليلي بدا متماوجا. كنت أدون أسماء أصدقائي بشغف ملحوظ. ولا أدري لم أغفلت اسم سوتارو ولم أذكره في لائحتي. كم أن الرياح عاتية! أحسست بأني أسمع ارتجاج الأشجار وأسلاك الكهرباء. أغمضت عيني مستندة بمرفقي إلى الطاولة الصغيرة وفكرت، حالمة، بالشوارع التي لا يتناهى منها أي ضجيج. ولم وضعت مثل هذه الطاولة في مثل هذه الحجرة؟ لاأدري. فالتي ابتاعتها، تلك التي يحكم سلوكها وتصرفها مزاج عنيد، تعمل الليلة، على جاري عادتها في البار.

«لا تنامي!» قال يويشي.

- «لست نائمة! والحقيقة أني أعشق أن أكتب إعلانات انتقال»

- «وأنا أيضا! أعشق كل هذه البطاقات التي توزع في حال تغيير عنوان الإقامة أو في حالات السفر...»

- «ولكن قل...» وكررت محاولة استدراجه: «ربما أثارت هذه البطاقة بعض الأعاصير وعرضتك لصفعة في المطعم الجامعي؟»

- «آه هذا ما قصدته منذ قليل؟»

ضحك ليخفي شيئا من الحرج غير أن صراحته البادية على وجهه جعلتني أستسلم.

«أنت تعلم جيدا أن بإمكانك مصارحتي بمثل هذه الأمور! فبالنسبة لي مجرد وجودي هنا أمر رائع وأروع منه أنه بإمكاني

أن أبقى!»

- «كفي عن هذا!» أجابني قائلا. «هل باعتقادك أن انهماكنا بقطع الكرتون هذه إنما هي لعبة أولاد؟»

- «ماذا يعني أن نلعب بقطع الكرتون؟»

- «لا أدري البتة!»

ضحكنا سويا وانتقلنا إلى حديث آخر غير أن هذا كله بدا لي غير طبيعي فأدركت أخيرا، وعلى الرغم من ذهني البليد، ما الأمر. أدركت ما الأمر حين رأيت عينيه.

كان حزنه عميقا باديا لا يوصف.

منذ بعض الوقت قال سوتارو أن صديقة تاناب قد ضاقت ذرعا بما يجري لأنها حتى بعد مرور سنة كاملة على علاقتهما ما زالت لا تعرف من هو بالفعل وراحت تروي هنا وهناك أنه عاجز عن الارتباط بفتاة أكثر من ارتباطه بقلم.

أما أنا، ولأني لست مغرمة به، فكنت أفهم أن القلم في عينيه ليس هو القلم كما في عيني صديقته. فهو لا يمتلك الصفة نفسها ولا الأهمية نفسها، ثم ربما يوجد في هذا العالم أناس يحبون قلمهم حتى الموت. بإمكاننا أن نتخيل مثل هذه الحقيقة شريطة ألا نكون مغرمين وهذا بالطبع يحزنني.

أخيرا بدا يويشي قلقا حيال صمتي فرفع رأسه وقال:

«ما جرى كان لابد منه! وليس ذنبك أنت على الإطلاق...»

- «... شكرا!»

لا أدري لما نطقت بهذه العبارة.

«لا شكر على واجب» أجابني ضاحكا.

أحسست بأني لامست شيئا ما في أعماقه. إنها المرة الأولى الذي ينتابني فيها مثل هذا الإحساس منذ شهر تقريبا، أي منذ إقامتي في هذه الشقة، وقلت في سري ربما ذات يوم سأغرم بيويشي.

عادة عندما أحب شخصا ما أندفع نحوه بعناد مغمضة العينين. ولكن مع يويشي، فالأمور معه قد تسلك مجرى بطيئا، وعلى امتداد أحاديث عادية كتلك التي جرت بيننا اليوم، تماما مثل تلك النجوم التي تتراءى لنا ثم تنخطف في عتمة سماء غائمة.

ولكن، قلت في سري فيما أواصل تدوين العناوين... ولكن ذات يوم سيكون علي أن أرحل.

واضح جدا أنهما انفصلا لأنني أسكن هنا، ولكن هل أصبحت أملك ما يكفي من القوة لأعاود العيش وحدي؟ لا أدري، ولكن على الرغم من هذا، فإنه سيتحتم علي أن أرحل قريبا، وربما قريبا جدا، حتى لو أنني أفعل حاليا العكس بالإعلان عن سكني الجديد.

في تلك الأثناء فتح الباب محدثا صريرا وفوجئنا بأريكو داخلة علينا حاملة كيسا ضخما من الورق بين ذراعيها.

«ما الخطب؟ وعملك؟» قال يويشي وقد استدار نحوها.

- «لن أمكث طويلا! انظرا: قد ابتعت خلاطا كهربائيا!» قالت مغتبطة وقد أخرجت علبة من داخل الكيس. فقلت في سري «مزيد أيضا من المشتريات!»

«عرجت على البيت لأتركه هنا. لا تنتظرا عودتي

لاستعماله!»

- «كان بإمكانك الاتصال هاتفيا فأعرج عليك لأحضره!» قال يويشي وهو يقطع الشريط بسكين.

- «لم أر داعيا لذلك! فهو ليس ثقيلا!»

أخرج يويشي من العلبة خلاطا جميلا بدا جاهزا لمزج كل أنواع العصير الممكنة والمتخيلة.

«بهذا سأتمكن من إعداد أنواع من عصير الفواكه الطازجة التي ستمنح بشرتي نعومة لا تضاهى»، قالت أريكو بفرح غامر.

- «في مثل سنك لن يفيدك بشيء!» أجاب يويشي مستغرقا في قراءة كتيب طريقة الاستخدام.

بدت المحادثة التي دارت بينهما أمامي على قدر مذهل من التلقائية كسائر المحادثات التي قد تدور بين أم وابنها، مما كاد يشعرني بدوار خفيف وذكرني الأمر بـ «زوجتي ساحرة». كانا يبديان مرحا لا يوصف على الرغم من الوضع الشاذ الذي يعيشانه.

«آه! إنك تبلغين أصدقاءك بانتقالك إلى عنوان آخر؟» قالت أريكو بعد أن ألقت نظرة على بطاقاتي، «إنه الوقت المناسب! وهذه هدية احتفاء بإقامتك معنا».

وقدمت لي رزمة صغيرة مغلفة بالورق.. فتحتها: إنه كوب جميل وعليه رسمة موزة.

«قد تستعملينه لشرب العصير»، قالت أريكو.

- «يبدو لي مثاليا لعصير الموز»، أضاف يويشي بجدية مفرطة.

-«أنتما لا تدركان مقدار فرحتي!» همست قائلة وقد اغرورقت عيناي بالدموع.

عندما سأغادر هذا المنزل سأحمله معي وحتى بعد رحيلي، سأعود بين الفينة والأخرى، لأعد حساء الأرز، قلت في سري دون أن أتمكن من نطق العبارات.

يا كوبي الصغير، يا كوبي الحبيب.

يوم غد تنتهي المهلة التي منحني إياها صاحب شقتي السابقة. وكنت قد انتهيت أخيرا من ترتيب حاجياتي كلها، ببطء الحلزون.

كانت بعد ظهيرة مشمسة، هواؤها ساكن، ولا أثر للغيوم في سمائها، وأشعة الشمس المذهبة اللطيفة تتسرب إلى داخل الغرفة الخالية التي كانت غرفة نومي منذ طفولتي.

عرجت على صاحب الملك لأعتذر عن التأخير في نقل أمتعتي.

في مكتبه الذي اعتدت أن أزوره منذ صغري، جلسنا نتبادل أطراف الحديث ونحتسي الشاي الذي أعده من أجلي. كم أصبح عجوزا! قلت في سري بتأثر بالغ، فلا عجب أن تكون جدتي قد توفيت، فقد بلغت من العمر عتيا.

وكما كنت أفعل حين أصحبها إلى هذا المكان، ها أنذا جالسة على الكرسي الصغير، أحتسي الشاي وأحادثه عن الطقس أو مشكلات الأمن في الجوار. فبدا لي كل هذا غريبا، أمرا لم أعتده على الإطلاق.

... كل ما عشته حتى هذه الأيام الأخيرة يرى أمام عيني في لمح بصر ثم يتلاشى. أما أنا فإنني مشدوهة، أتبعه ببطء،

واستنفذ قواي في سيري الهوينا خلفه، كمثل سلحفاة، لأستدرك تأخري.

ومع ذلك ينبغي القول: لست من أطلق هذا المسار، لست أنا على الإطلاق. والبرهان على ذلك هو أن ما يجري يشعرني بكآبة عميقة.

النور يتسرب إلى غرفتي الخالية تماما، إلى حيث كانت تسود، فيما مضى، رائحة بيت مأهول.

نافذة المطبخ. ابتسامة أصدقائي، الخضرة الباهرة التي تفترش أرض حديقة الجامعة التي أراها من خلف الطرف الجانبي لوجه سوتارو، وصوت جدتي على الطرف الآخر من خط الهاتف حين أتصل بها عند ساعة متأخرة من الليل، ولحافي في برد الصباح الباكر، ووقع خفي جدتي في الرواق، ولون الستائر... وآل تاتامي... وساعة الحائط...

كل هذه الأشياء تجعلني غير قادرة على البقاء هنا.

عندما غادرت البيت كان الليل قد حل تقريبا.

كان غروب شاحب يغطي سماء المدينة، وهبت ريح خفيفة، ومال الهواء إلى برودة محسوسة، كانت ثنيات معطفي الخفيف ترتعش خلال انتظاري الباص.

كنت أحدق بالمباني العالية الكبيرة المصطفة على الجانب المقابل من الشارع، في صفوف نوافذها ذات الخلفية الزرقاء. يتهيأ للناظر أن جميع الناس الذين ينهمكون بأعمالهم في داخلها، وسباقات المصاعد العمودية، على وشك الذوبان في ظلام غامض وبصمت كبير.

وضعت آخر ما حملته من حقائبي بجانبي على الأرض وانتابني إحساس بأنني، هذه المرة، سأجد نفسي وحيدة حقا، من دون أحد أو شيء، فاستبدت بي رغبة في البكاء وفي الضحك، اختلج لها قلبي.

رأيت الباص مقبلا عند المنعطف وانساب بمحاذاة الرصيف، وتوقف على مهل أمامي، وراح الناس يصعدون إليه في صف أحادي.

كان الباص مزدحما، أمسكت بالمقبض، وأرخيت ثقل جسمي كله عليه، ورحت أتأمل السماء التي تعتم ثم تتوارى شيئا فشيئا خلف المباني.

وفي اللحظة التي اهتدت فيها عيناي إلى القمر الطالع الذي كان يستعد لاجتياز السماء بتمهل، انطلق الباص.

كل فرملة مفاجئة تشعرني بتشنج حاد، ومثل هذا الأمر يعني عندي أنني متعبة جدا. ومكثت على هذه الحال من توتر إلى آخر، حتى رفعت عيني ساهية فرأيت منطادا يحلق في البعيد. وكان يتحرك ببطء طارداً الهواء.

صفا مزاجي فتتبعته طويلا بعيني. كان مرصعا بأنوار غامزة، يجوب السماء كأنه انعكاس باهت للقمر.

وفجأة، انحنت عجوز بقربي نحو فتاة صغيرة جالسة أمامها وهمست في أذنها: «انظري يا يوكي: إنه منطاد! أترين كم هو جميل!».

لابد أن الفتاة التي تشبهها تماما هي حفيدتها، وبدت متعكرة المزاج، بالتأكيد بسبب الازدحام، فأجابت وهي تتلوى غيظا: «لا. هذا ليس صحيحا! إنه ليس منطادا!».

لم تبد الجدة أي رد فعل، بل اكتفت بالقول باسمة: «أحقا؟ ربما كنت على حق...»

- «ألا يزال المكان بعيدا؟ إني أشعر بالنعاس!...»

وتابعت يوكي تذمرها في همهمة غير مفهومة.

فتاة مزعجة! كنت أشعر، أنا أيضا، بالإنهاك، وخطرت ببالي تلك العبارة اللئيمة. لا تتكلمي بهذه النبرة أمام جدتك! لأنك ستعضين أصابعك من الندم!

«هيا ياصغيرتي، كدنا نصل! انظري إلى الخلف. أمك غارقة في النوم! أتودين أن تذهبي لإيقاظها؟»

- «حقا!...»

التفتت يوكي إلى حيث تجلس أمها ورأتها تغالب النعاس، فابتسمت أخيرا.

إنهما محظوظتان، قلت في سري.. كم أحسدهما! هذه الجدة التي تتحدث بلطف شديد، وتلك الفتاة الصغيرة التي جعلتها ابتسامتها محببة في عيني. لن أمر بموقف كهذا بعد اليوم.

لا أحب كثيرا هذه العبارة: «بعد اليوم» بإيقاعها العاطفي الفاقع ومعناها التقريري الحاسم مع أنها حين خطرت ببالي منذ هنيهه، بدت لي تلك العبارة بثقلها المهلك وتشاؤمها ذات وقع كبير لن أنساه في حياتي.

بإمكاني أن أؤكد لكم أني كنت أغالب النعاس بشيء من التراخي واللامبالاة، أو - على الأقل - أعتقد أنني كنت كذلك، وبينما يتأرجح جسمي مع إيقاع سير الباص، كانت عيناي

تقتفيان تحليق المنطاد الذي يتجه إلى الطرف الآخر من السماء.

لكن شعرت فجأة بالدموع تنهمر على وجنتي وتتساقط قطرة قطرة على معطفي. لم أصدق عيني.

قلت في سري أن آلية التحكم في جسمي تعطبت. تماما مثلما يحصل في حالة السكر الشديد عندما يتدفق البكاء وحده، ولا سبيل لكتمانه. كان كل هذا يحدث في خارجي، ثم أربكني الخجل وصارت وجنتاي كالجمر لكني أدركت خجلي هذا، وهرعت للنزول من الباص.

ما أن ابتعد عني حتى سلكت أول زقاق معتم صادفته.

وهناك جلست القرفصاء بين حقائبي وأجهشت في البكاء. لم أبك في حياتي كلها كما بكيت هناك. دموع غزيرة حارقة لا تنضب، فأدركت فجأة أنني منذ وفاة جدتي لم آخذ حصتي في البكاء.

أشعر أني كنت أريد أن أغرق كل شيء بسيل من الدموع دون أي سبب يتعلق بالحزن.

فجأة لمحت في العتمة غمامة بخار أبيض، بخار يتصاعد من نافذة مضاءة فوق رأسي. أصغيت: من الداخل تتناهى أصوات لأشخاص يعملون، وقرقعة أوعية وصحون.

«إنه مطبخ!»

انتابني إحساس مستبد بالأسى والفرح، وضحكت لهنيهات ثم نهضت، نفضت تنورتي وسرت باتجاه مبنى آل تاناب حيث يجب أن أرجع هذا المساء.

ربي، امنحني القدرة على أن أواصل العيش!

«أصبح الأمر فوق طاقتي واحتمالي»، بادرتُ يويشي بالقول فور دخولي إلى الشقة وآويت إلى الفراش.

كان نهارا منهكا. ومع ذلك شعرت بأن البكاء قد فرج عني، ودخلت في نوم هادئ.

«غير معقول! لقد غفت!» حسبت أني سمعت، صوت يويشي فوق رأسي، الذي جاء ليحتسي الشاي في المطبخ.

رأيت حلما.

كنت ألمّع المجلى في البيت الذي تركته نهائيا، هذا اليوم بالذات.

لون الأرضية الأخضر، كم افتقده!... مع أنني كنت أمقته طوال فترة إقامتي فيه، أما الآن، لأني سأرحل عنه أشعر بأنني سأفتقده كثيرا.

رأيت في الحلم أني قد أنجزت جميع استعدادات الانتقال ولم يبق أي شيء في خزائن المطبخ ولا على الطاولة النقالة. (وفي الواقع كنت قد انتهيت من كل هذه الأشياء منذ وقت بعيد).

فجأة انتبهت إلى أن يويشي يمسح أرضية المطبخ، ووجوده معي جعلني أشعر بارتياح كبير.

واقترحت قائلة: «فلنسترح قليلا، سأعد الشاي». وكان صوتي يطلق أصداء تتردد بين جنبات الحجرة التي بدت فسيحة، شاسعة بلا حدود.

«حسنا»، قال يويشي رافعا رأسه. وفكرت: «ما الجدوى من

بذل هذا العناء لتلميع أرضية بيت سنرحل عنه، ويملكه شخص آخر... لكن هذا طبع وطبعه هو بالتحديد!

«أهذا هو مطبخك؟» سأل يويشي جالساً على تكية في الأرض، راشفا شايه الذي سكبته له في قصعة، لأن الأكواب كلها أصبحت في الصناديق.

«لابد أنه كان مريحاً هذا المطبخ!»

- «نعم، بالفعل...»... أجبت قائلة. كنت أحتسي الشاي بطاسة الأرز التي أمسكها بكلتا راحتي كما تحمل الأكواب في طقوس احتساء الشاي التقليدية.

صمت مطبق كأننا داخل قفص من زجاج، رفعت ناظري.

لم يبق على الجدار سوى أثر علامات خلفته ساعة الحائط.

«كم الساعة الآن؟» سألت.

«لابد أننا أصبحنا في ظلمة الليل»، قال يويشي.

«لماذا؟»

- «في الخارج ظلام مطبق وسكون غامر»

- «كما لو أني أنتقل في الخفاء!»

- «بالنسبة للحديث الذي تناولناه قبل قليل»، قال يويشي «هل تنوين الرحيل أيضا من بيتنا؟ لا ترحلي!»

ولأن كلامه جاء دون مناسبة رمقت يويشي بنظرات استهجان.

«يبدو أنك تظنين أنني أتصرف دون تفكير مسبق على غرار أريكو، ولكن في الحقيقة فكرت مليا قبل اتخاذي قرار استضافتك في بيتنا. كانت جدتك شديدة القلق بشأنك،

واليوم، من المؤكد أن أفضل شخص يفهمك هو أنا. وأعلم أنك في اليوم الذي ستشعرين فيه بالقوة الكافية ستكونين قادرة تماما على الرحيل مهما بذلنا من جهد لإقناعك بالبقاء. ولكنك في الوقت الحالي غير مستعدة لذلك. وبما أنه لم يعد لديك أحد ليقول لك ذلك، شعرت أنه من واجبي أن أقول لك هذا بنفسي... كل هذا المال الذي تجنيه والدتي لابد أن ينفق في مثل هذه الأحوال. فلا يعقل أن يستخدم فقط لشراء الخلاطات الكهربائية». وراح يضحك.

«أؤكد لك أنه يمكنك أن تتمتعي بهذا الوضع. لا تستعجلي» قال لي هذا وهو يرمقني بنظرات ثابتة في عيني وينطق كل كلمة بمخارجها، بهدوء، وبقوة الإقناع التي يمتلكها الشخص الذي يحاول، بصدق، أن يستدرج مجرما للاعتراف.

وافقت.

فرد بحماس: «حسنا، لنستأنف التلميع!».

حملت القصعة والطاسة ونهضت أنا أيضا.

وفيما انهمكت في غسل الأواني، سمعت صوت يويشي مصحوبا بتدفق الماء من الصنبور، يدندن لحن أغنية.

لكي لا أكسر
شعاع القمر
أوقفت قاربي
عند جرف الصخور

«إني أعرف هذه الأغنية! ما اسمها؟ إنها تعجبني» سألت: «من يغنيها؟»

- «مهلا... إنه موموكو كيكوشي! كم بإمكاننا سماعها مرارا وتكرارا»! قال يويشي ضاحكا.

- «هذا صحيح جدا!»

ورحنا نغني معا، أنا ألمع المجلى وهو يمسح الأرضية.

كانت متعة حقا أن نسمع صدى صوتينا يتردد في صمت المطبخ.

وقلت: «أحب بالتحديد هذا المقطع». ورحت أغني السطور الأولى من المقطع الثاني.

هناك

في البعيد

أنوار

المنارة

تدغدغ الليالي

التي نمضيها سويا

وبمرح أفقدنا صوابنا، رحنا نغني سويا بأعلى صوت:

هناك في البعيد

أنوار المنارة

تدغدغ الليالي

التي نمضيها سويا

فجأة، دون أن أقصد، نطقت بهذه العبارة: «ولكني نسيت: إن صوتنا سيوقظ جدتي التي تنام في الغرفة المجاورة!»

واستدركت بالقول: «يا للحمق!»

بدا يويشي مربكا أكثر مني: ورأيت، من الخلف يده تجمد

فوق الأرضية.

ثم استدار نحوي ورمقني بنظرة لا تخلو من حرج.

حرت في ما أفعل، فاخترت أن أضحك.

ففي مثل هذه المواقف يستطيع هذا الصبي، الذي ربته أريكو مفعما بالحنان، أن يتصرف مثل أمير.

قال: «عندما ننهي حملة التنظيف هذه، وفي طريق عودتنا إلى البيت، أود أن نعرج على الحانة في الحديقة العامة لنأكل معكرونة شريطية صينية!

استيقظت.

في الليل، على الكنبة، عند آل تاناب... «هذا ما يحدث عندما يخلد المرء إلى النوم باكرا، على الرغم من أن النوم باكرا ليس من عادتي. وأي حلم غريب...» قلت في سري قبل أن أذهب إلى المطبخ لشرب جرعة ماء. كان يتملكني شعور الثلج في قلبي، ولم تكن قد رجعت بعد والدة يويشي. إنها الثانية بعد منتصف الليل.

كنت في شبه يقظة من حلمي ولفت انتباهي صوت الماء، وتساءلت أنه ربما كان علي أن ألم المجلى.

ليلة من الوحدة الصامتة تكاد تسمع فيها حركة النجوم الشاهبة في السماء. لطفت جرعات الماء جفاف قلبي قليلا قليلا. كان الجو بارداً وراحت قدماي ترتعدان في خفي.

«مساء الخير!»

أجفلني صوت يويشي الذي فاجأني واقفا ورائي.

«ماذا تفعل هنا؟» سألته ملتفتة تجاهه.

- «استيقظت لأني جائع فقلت... لم لا أعد لنفسي بعض المعكرونة الشريطية الصينية...»

إن يويشي الماثل أمامي المتمتم، الغارق في نوم مضطرب، ليس له صلة بيويشي حلمي. وبوجهي الذي غسلته الدموع قلت له: «سأعد لك ما تشاء. ابق جالسا! على كنبتي!»

- «آوه، على كنبتك...»

وذهب إليها مترنحا.

في الإضاءة الخافتة فتحت باب الثلاجة، وقطعت الخضار. في ذلك المطبخ الذي أحببته كثيرا... «يا للصدفة العجيبة، قصة المعكرونة الشريطية» هذه! قلت في سري، وفي غمرة انهماكي مازحت يويشي قائلة: «في الحلم أيضا تكلمت عن المعكرونة الشريطية الصينية!» لم يجب. لابد أنه عادإلى نومه. استدرت نحوه فرأيته محدقا بي، فاغرا فاه «لا... هذا ليس معقولا!» قلت.

عندئذ قال يويشي كأنه يحادث نفسه: «في بيتك القديم، مطبخك... أقصد: الأرضية ألم تكن خضراء؟»

- «هيا، لن نلعب لعبة الألغاز!»

في البداية وجدت الأمر مسليا، ولكن سرعان ما أدركت المغزى وقلت:

«شكرا لك لأنك نظفت الأرضية هناك قبل قليل»

ربما لأن النساء هن الأسرع، دائما، للاعتراف بمثل هذه الأمور.

«حسنا، قضي الأمر، لقد استيقظت!» قال، وبشيء من العتب

أردف قائلا:

«أود أن أشرب الشاي ولكن ليس في قصعة!»

- «ما عليك إلا أن تعده بنفسك!»

- «لدي فكرة أفضل! سأعد عصير فواكه بواسطة الخلاط! أتريدين بعضا منه؟»

- «أجل»

أحضر يويشي عددا من ثمرات الليمون الهندي من الثلاجة وأخرج، مغتبطا، الخلاط من علبته.

في المطبخ، في ساعة من الليل أجهلها، طبخت المعكرونة الشريطية على هدير الآلة التي تعد لنا عصير الفواكه.

أمر مذهل جدا وعادي جدا. معجزة وواقع.

المهم أني كتمت في ذات نفسي ذلك الانفعال الذي يتلاشى ما أن نحاول أن نعبر عنه بكلمات. لدينا متسع من الوقت. وفي مضي الليالي والصباحات، المتواليات، ربما تصبح هذه اللحظة هي أيضا حلما،... ذات يوم.

«ليس من السهل أن نصبح امرأة»

قالت ذلك أريكو ذات مساء بكثير من الحدة .

رفعت رأسي من المجلة التي كنت مستغرقة في قراءتها وسألت: «ماذا؟» وكانت والدة يويشي الفاتنة تسقي النباتات أمام الواجهة الزجاجية قبل أن تذهب إلى عملها.

«أشعر بأنك شخص يفهم الحياة، ولذا أردت أن أتحدث إليك. أتعلمين، لم أدرك هذا إلا حين قمت بتربية يويشي لوحدي. هناك الكثير... الكثير من المشقات.

حينما يريد المرء فعلا أن يتحمل المسؤولية، فما عليه إلا أن يعنى... بطفل أو نبتة، مما يجعله يدرك حدود طاقته حينذاك.

وبصوتها الموسيقي، حكت لي عن فلسفتها في الحياة.

قلت بتأثر: «لابد أن حياتك لم تكن دائما وردية!»

- «هذا صحيح... ولكن بأية حال إن لم نمس العمق مرة واحدة، على الأقل، في حياتنا، وإن لم نتوصل إلى إدراك الجزء الذي نتشبث به من حياتنا، نكون هرمنا دون أن نعلم، حقا، ما هي السعادة. أنا، شخصيا، أشعر بأن الحظ كان في جانبي!».

وكنت أرى شعرها الناعم مسدلا مترجحا على كتفيها. فكم في الحياة من مشقات صعبة، ما يجعل واحدنا يقول إن الطريق وعرة ولسالكها أن يغمض عينيه! حتى الحب، فهو لا يستطيع أن ينقذ كل شيء. ومع ذلك، كانت تواصل أريكو في هالة أضواء الغروب، ري النباتات بأصابعها الرقيقة، تواصل ري النباتات في غمرة أضواء الغروب الرقيقة، المتوهجة، التي تعكس ظلال قوس قزح حول المياه العذبة التي تنسكب على التراب.

«أظن أنني أفهم»، قلت.

- «أحب عفويتك كثيرا، يا ميكاج! إني واثقة من أن جدتك التي ربتك قد جعلت منك شخصا مدهشا»، قالت أم يويشي.

- «أجل، كنت فخورة بها». وضحكت

- «كم كنت محظوظة!»

وأدركت، من حركة ظهرها، إنها تبتسم.

لا أستطيع أن أمكث هنا إلى الأبد، قلت في سري مستغرقة مجددا في قراءة المجلة. إن الأمر بدهي مهما بدت الفكرة قاسية، ومهما سببت لي من دوار.

هل سيأتي يوم، بعد رحيلي، أستعيد فيه ذكرى هذا البيت بحنين؟

هل سيأتي يوم يتاح لي أن أعود إلى هذا المطبخ؟

على العموم، في الوقت الحالي، أنا هنا، بصحبة هذه الأم المتدفقة حيوية، وهذا الابن ذي النظرات الحانية، وهذا أهم شيء.

وأنا ما زلت سأكبر وسأمر بأحداث مختلفة وغالبا ما سأمس العمق. ولكن بعد كل محنة سأخرج إلى السطح ولن أترك نفسي تنهزم، ولن استنفد قواي.

مطابخ الأحلام.

سيكون لدي منها حتما الكثير، في الخيال، وفي الحقيقة أو حتى أثناء رحلاتي.. سواء كنت وحيدة أو بصحبة أصدقاء كثر، أو بصحبة شخص ثاني. من المؤكد أنني سألقى منهم أعدادا لا تحصى في جميع الأماكن التي سأعيش فيها.

(٢)

الليلة المقمرة

أواخر الخريف ماتت أريكو.

قتلها معتوه بعد أن تمادى في التحرش بها. في بادئ الأمر، صادف أريكو في الشارع وفتنته، وحين لحق بها واكتشف أنها تعمل في بار يرتاده المخنثون، كتب لها آنذاك رسالة طويلة ليعبر لها عن الصدمة التي تلقاها حين علم أن امرأة بمثل جمالها هي في الحقيقة رجل، ثم راح يرتاد البار. وحيال إصراره على ارتياد المكان رأت أريكو والمستخدمون أن يعاملوه بازدراء، وذات مساء استشاط غضبا وراح يصرخ محتجا على الاستهزاء الذي يلاقى به، وطعن أريكو مرارا بالسكين، فعمدت أريكو الملطخة بالدم إلى الاستعانة بالثقالات التي تزين البار وعاجلت القاتل بضربة مميتة.

ويبدو أن كلماتها الأخيرة كانت تعني:

«إنه دفاع مشروع عن النفس لذا أصبحنا متعادلين!»

حين بلغني النبأ كان الشتاء قد حل واتصل بي يويشي بعد أن حدث كل هذا بوقت طويل.

«لقد واصلت عراكها معه حتى الموت!» قال بنبرة مباغتة. كانت

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وكنت قد استيقظت مجفلة على رنين الهاتف في كنف الظلمة غير مدركة ما الأمر، وراحت تتراءى في ذهني المنحدر مشاهد من أفلام حربية.

«يويشي ماذا تقول؟ عما تتكلم؟» سألته مرارا وبعد هنيهات صمت قال: أمي... إن أبي بالأحرى قُتِل».

لم أفهم ومازلت لم أفهم.. فمكثت في مكاني بكماء حابسة الأنفاس، فراح يويشي يروي لي بمشقة واضحة تفاصيل متفرقة عن موت أريكو.

كلما يروي القصة كلما يصعب علي تصديقها، وأحسست بصقيع يجمد عيني، وفضاء الحجرة، وكأن السماعة تبتعد فجأة عن أذني.

«متى حصل هذا؟ الآن في التو» سألت دون أن أعي حقا من أين يصدر صوتي وما الذي أقوله.

«لا. حصل هذا منذ بعض الوقت وأقمنا له أنا وعاملو البار حفلا جنائزيا متواضعا.. أعذريني لم أستطع... لم أنجح في إعلامك بالأمر»

شعرت بأن حفنة من كياني تنتزع مني. رحلت أريكو. وما عادت الآن في أي مكان.

«أرجوك، اغفري لي!» راح يردد قائلا.

عبر الهاتف، لا شيء يحدث، لا أستطيع أن أرى يويشي عبره. ألديه رغبة في البكاء؟ أو القهقهة ضاحكا؟ أو ربما أن يسترسل في الكلام لساعات؟ أم أنه يريد أن يدعه الجميع وشأنه؟ لا أدري.

«يويشي، إني آتية إليك! أبإمكاني المجيء؟ يجب أن ألقاك لأتحدث إليك!» قلت.

- «أجل ولا تقلقي سأصحبك في طريق العودة»

مازلت عاجزة عن فهم حقيقة مشاعره.

«إلى القريب العاجل!»

وأقفلت الخط.

متى رأيت أريكو للمرة الأخيرة؟ وهل افترقنا عندها بابتسامة؟ أصابني دوار. أذكر أنني حين أوقفت دراستي نهائيا في الكلية لأصبح معاونة في مدرسة للطبخ، كان الخريف في مطلعه، ثم لم ألبث أن غادرت منزل آل تاناب حيث أقمت طيلة ستة أشهر مع يويشي وأمه أريكو إثر وفاة جدتي.

وكانت أمه في الحقيقة رجلا... هل كان لقاؤنا الأخير يوم انتقالي من منزلهما؟ ذرفت أريكو بعض الدموع وقالت: «بما أن شقتك الجديدة قريبة جدا تعالي في عطلات الأسبوع»... لا إني مخطئة.. لقد التقيتها في نهاية الشهر المنصرم. بلى، بلى في ساعة متقدمة من الليل في المخزن الكبير الذي يفتح أبوابه ليلا نهارا.

في ذلك المساء، استبد بي الأرق فقصدت المخزن لأشتري بعض الـ «كريم كارامل» وعند المدخل صادفت أريكو بصحبة نادلات البار - وهن بالمناسبة رجال أيضا! - كن قد أنهين عملهن وجئنا ليأكلن الأودن(*) ويرتشفن القهوة في أكواب من الكرتون المشمع. ناديت: «أريكو» فأمسكت بيدي وضحكت قائلة.. «أهذا أنت يا ميكاج.. لقد أصبحت نحيلة جدا بعد رحيلك عنا!» وكانت ترتدي ثوبا أزرق.

عندما غادرت المخزن حاملة الكريم كارامل الذي اشتريته.. أريكو مازالت عند المدخل، كوب القهوة في يدها.. تحدق باستغراب في أرضية الشارع التي تلمع في الظلمة. مازحتها قائلة: «أريكو يوجد رجل على

(*) الـ ODEN هو قدير خضار وحبار وعجينة العصقول متبل بالخردل، إنه طبق شعبي زهيد الثمن غالبا ما يتناوله الناس وقوفا في الهواء الطلق أمام أكشاك الشطائر والوجبات السريعة.

وجهك!» فبش وجهها مجددا وأجابت: «انظروا إليها، صغيرتي هذه.. إنها لا تكف عن السخرية مني! لابد أنها بلغت سن الجحود...».

قلت لها: «إني راشدة!» مما أثار ضحك فتيات البار جميعهن ثم قالت: «عديني أنك ستأتين لزيارتي!» بلى افترقنا بابتسامة على الأقل. كانت تلك هي المرة الأخيرة.

كم من الوقت استغرقني للعثور على فرشاة أسناني والمنشفة الإسفنج الصغيرة؟ كنت تائهة تماما. جلت في أرجاء الحجرة مثل دب في قفص، أفتح الأدراج وأغلقها، ثم أفتح باب الحمام وأغلقه، وأسقط المزهرية أرضا ثم أمسح الأرضية إلى أن انتبهت إلى أن يدي ما زالتا فارغتين. ضحكت عندئذ، على الرغم من كل شيء، ثم أغمضت عيني وقلت في سري: «يجب أن تهدئي!».

دسست فرشاة الأسنان والمنشفة في حقيبتي الصغيرة وبعد أن تفقدت - ولمرات لا أستطيع أن أحصيها - مفاتيح الغاز وجهاز الرد الآلي، غادرت منزلي ومشيت مترنحة.

عندما هدأ روعي كان المشهد قد تبدل، ووجدتني أسلك الطريق المفضي إلى دار آل تاناب عبر شوارع الشتاء المظلمة. وفيما أسير تحت سماء مرصعة بالنجوم وعلاقة مفاتيحي تحدث طقطقة بين أصابعي، راحت دموعي تنهمر على وجهي، كأنها سيل لا يتوقف. الرصيف تحت قدمي والمدينة غارقة في الصمت، بدا لي كل شيء في صورة مشوهة كأن غمامة من بخار حار تحجبها. وفجأة انتابني إحساس مضن بالاختناق. ومهما حاولت أن أتنشق الهواء الطلق غمارا، فإنه لا يتسرب إلى رئتي إلا بمقدار خيوط رفيعة. وأحسست بأن النسيم يعري الذرى المتوارية في قعر عيني ويجعلها في كل لحظة أشد فأشد صقيعا.

بت لا أميـز أعـمـدة الإنارة والمصـابيح، والسـيـارات المركـونة، ولا أرى السـمـاء السـوداء، أي كل مـا أراه عـادة دون تفكيـر. وكل ذلك، كـأني أراه عبر غـلالة من بخار حار، يلتمع ببريق مذهل وتلتوي خطوط رسـمه على غـرار الصور السـريالـيـة، ويطالعنـي بأحـجـامـه الـضـخـمـة كـأنه ملتـصق بعيني. شعـرت بأني أستنفذ كل طاقـاتي، وأنني عـاجـزة عن استـبـقـائهـا في، فتتلاشي في كنف الظلمات.

يوم مـات والدي كنت لا أزال طفلة. ويـوم مـات جـدي كنت عـاشـقـة. ويوم مـاتت جدتي أصبـحت وحيـدة في هـذا العـالم، ولكن وحـدتي، الآن، أشد وأعمق.

وكنت أتمنـى، بصـدق، أن أكف عن وضـع قـدم أمـام الأخـرى. أود أن أكف عن الحياة.

الغـد سـوف يـأتي لا مـحـالة، ثم بعـد غـد، ثم في القـريب العـاجل، الأسبوع المقبل. لم أشعر من قبل أن مثل هذا الأمر قد يكون قـاتلا. فلا بد أنني سـأعيش هذه اللحظات في حزن أسـود ولـم أكن أتحـمل مجـرد التفكيـر في ذلك. ففيمـا تعصف بقلبي أنواء عاتية، أجدني في شـيء من القرف سائرة بخطو ثابت في الشوارع المقفرة ليلا.

كنت أود أن أفتعل انقطاعـا ما، وبأسـرع ما يمكن، على الأقل، عنـدما ألتـقي يويـشـي... وبعـد أن يخـبـرني كل شـيء... ولكن مـا الجـدوى؟ ومـا الذي سـيـتـغـيـر؟ قـد يؤدي ذلك إلى توقف انهـمـار المطر البـارد في العتمة. غيـر أن هذا لا صلة له البـتة بالرجاء. ليس أكثر من مجرى مياه قاتمة يصب في نهر اليأس الواسـع.

مـرهقة إلى الرمق الأخيـر، قرعت بـاب آل تاناب. أنفاسي متلاحقة، لاهثـة، لأني في استـغـراقي، لم اسـتـقل المصعـد بل تسلقت الدرج حتى

الطابق التاسع.

سمعت وقع أقدام يويشي تقترب بوتيرة سيره التي أعرفها جيدا. فعندما كنت لا أزال أعيش عيلة على هذا البيت، كنت غالبا ما أغادر البيت ناسية مفاتيحي فأجدني مرارا مرغمة على قرع الباب في ساعات متأخرة من الليل، وفي كل مرة يستيقظ يويشي ليفتح لي الباب، وحين يرفع سلسلة الأمان كان يتردد صدى ارتطامها بخشب الباب في أرجاء الصمت المطبق.

أطل يويشي، الذي بدا هزيلا، برأسه من فرجة الباب وقال «مرحبا!».

«لقد مضى بعض الوقت...» أجبت قائلة، ولم أتمكن من إخفاء ابتسامة ارتسمت على شفتي وهذا أمر أفرحني كثيرا: فمن صميم قلبي كنت مغتبطة بالفعل لأني التقيته مجددا.

«أتأذن لي بالدخول؟»

وإذ انتشله سؤالي من شروده، استدرك بابتسامة ضعيفة وقال: «أجل، بالطبع!... لقد كنت مقتنعا كل الاقتناع بأنك حانقة علي... إن رؤيتك على هذه الحال هي حقا مفاجأة.. أعذريني. هيا ادخلي!».

«إني لا أغضب لمثل هذه الأمور وأنت تدرك ذلك جيدا!»

وافق بإشارة من أرسه محاولا أن يحافظ على بشاشة وجهه المعتادة. فبادلته الابتسامة، ونزعت حذائي.

عندما يعود أحدنا إلى شقة أقام فيها لبعض الوقت في ما مضى، يشعر في البداية ببعض الضيق والعجز عن الاسترخاء، لكن سرعان ما يتآلف مجددا مع الرائحة التي تسود أرجاءها، ويعاوده حنين من نوع خاص.. أرخيت جسمي على الكنبة ، واستسلمت لهدهدة هذا

الحنين عندما أحضر لي يويشي القهوة.

«أشعر بأنني غادرت هذا المكان منذ دهر أو أكثر»، قلت له.

- «هذا أمر طبيعي، لقد كنت منهكة جدا في هذه الآونة. كيف حال عملك؟ هل أنت راضية؟» سألني يويشي بهدوء.

- «أجل، في هذه الآونة كل شيء يسليني. حتى تقشير البطاطا. إنني أمر بمرحلة من هذا النوع»، أجبته مبتسمة. عندها وضع يويشي كوبه على الطاولة ودخل فجأة في صلب الموضوع.

شعرت هذا المساء، وللمرة الأولى منذ بعض الوقت، أن ذهني بدأ يعمل. فقلت في سري: «يجب أن أطلعها على الأمر مهما كلف الأمر، وعلى الفور»، وبالفعل، اتصلت بك هاتفيا.

ملت برأسي وجذعي نحو يويشي لكي أسمعه جيدا ونظرت بثبات في عينيه. وراح يحكي لي:

«بقيت حتى موعد الدفن لا أدرك حقيقة ما جرى وأين أصبحت. فراغ مطلق في رأسي وغشاوة سوداء على عيني. أنت تعرفين جيدا أنني لم أعش يوما مع شخص آخر، وكان لي، في الوقت نفسه، أب وأم ولا أذكر يوما أن الأمر خلاف ذلك، لذا فإن الصدمة والاضطراب كانا أكبر مما كنت أتخيل، ثم تلك الأمور التي لا تحصى والترتيبات التي ينبغي أن تنجز، فمرت الأيام دون أن أتنبه أني أعيش في دوامة. كما أنك تعلمين أن الأمور لم تكن معها عادية على الإطلاق وحتى موتها... توافد الناس من كل نحو وصوب، حتى زوجة القاتل وأولاده، وأصيبت فتيات البار بما يشبه الهستيريا الحقة، أما أنا، فكان علي أن أقوم بدور الابن وإلا عمت الفوضى. لطالما فكرت فيك. أؤكد لك أنها الحقيقة! كنت أفكر فيك باستمرار، غير أني لم أقو على الاتصال بك. وبدا لي

أنك حالما تعلمين بالخبر يصبح وفاتها حقيقة، وهذا ما أخافني. الخوف من القول بأن أمي، التي هي، أيضا، أبي قد أنهيت حياتها على هذا النحو، وأنني أصبحت وحيدا. غير أنها كانت أيضا مقربة منك والآن، حين أفكر بما فعلت، أدرك أني أسأت التصرف حين أخفيت عنك الأمر. غير معقول، لابد أنني كنت مشوشا حتى الحمق!».

حكى يويشي كأنه يحكي مع نفسه، دون أن يرفع عينيه المحدقتين بالكوب الذي يحمله بين راحتيه. حيال الحزن الذي يتبدى في عينيه، لم أجد على لساني سوى هذه الكلمات: «كأن ليس هناك من حولنا إلا موتى. والدي، جدي وجدتي... والمرأة التي أنجبتك، والآن، أريكو. غير معقول! إنني متيقنة أن لا أحد في هذا الكون الشاسع حاله مثل حالنا نحن الاثنين! فأي مصادفة عجيبة تجعلنا قادرين على التفاهم!... من حولنا يدور الموت، ودورته لا تتوقف!».

- «هذا صحيح»، قال يويشي مبتسما، ربما كان علينا أن نقترح على الناس الذين يرغبون في الموت أن نقيم معهم! فقد نجني ثروة من ذلك. وتكون مهنتنا ألا نفعل شيئا سوى الانتظار.

كان هناك بريق النور في ابتسامته الحزينة الهادئة الذي يتبدد نثارا. لقد أصبح الليل أعمق فأعمق غورا، التفتُّ واستغرقتُ في تأمل المنظر الرائع الذي يتلألأ من الجهة الأخرى من واجهة الزجاج، فمن هذا الارتفاع بدت المدينة رافلة بشذرات لامعة، وتتدفق صفوف السيارات في الظلام مثل أنهر مشعة.

«هأنذا يتيم»، قال يويشي.

- «أما أنا فهذا يتمي الثاني، وليس لي أن أكون فخورة بذلك!» أجبته ضاحكة، غير أني فوجئت بالدموع تنهمر من عينيه غزيرة.

«كم اشتقت لمزاحك!»، قال وهو يمسح أجفانه بذراعه: قد اشتقت إليه كثيرا!».

براحتي الممدودتين طوقت رأسه وقلت: «شكرا لأنك اتصلت بي».

اخترت، كتذكار من أريكو، كنزة حمراء كانت ترتديها باستمرار.

لأنها تذكرني بذلك المساء عندما أصرت أن أرتديها لترى، فصرخت: «هذا ليس عدلا! لقد كلفتني ثروة، وهي تليق بها أكثر مما تليق بي!».

ثم أعطاني يويشي «الوصية» التي كانت أريكو قد دستها في أحد أدراج منضدتها، وبعد أن تمنى لي ليلة هانئة، خلد إلى سريره، ما أن أصبحت وحدي في الغرفة حتى شرعت في قراءتها.

عزيزي يويشي إنني أشعر بغرابة كوني أحرر رسالة موجهة إلى ابني أنا. غير أني، في هذه الآونة، أشعر بأنني معرضة لسوء، لذا أفضل أن أكتب إليك تحسبا لـ... طبعا هذه دعابة ليس إلا! ذات يوم سنقرأ هذه الرسالة سويا وسوف نضحك مما ورد فيها ملء أشداقنا.

مع ذلك، فكر قليلا يا يويشي: إن مت أنا، فسوف تجد نفسك وحيداً، مثل ميكاج تماما وفي مثل هذه الحال ليس لك أن تسخر منها، ليس لدينا أهل! يوم زواجي من أمك نبذتنا العائلة، ويوم أصبحت امرأة، علمت أنني حظيت بلعنتها الأبدية، لذا إياك أن تحاول الاتصال مجددا بجديك! أتسمع ما أقول؟

أو تعلم يا يويشي، في هذا العالم، هناك أجناس كثيرة من الناس! غير أنني عاجزة عن فهم أولئك الذين يعيشون في طين أسود، أولئك الذين يتعمدون الإتيان بأمور مقززة للفت انتباه الآخرين، وفي أسوأ الأحوال، ينتهي الأمر بهم بأن يقعوا في الشرك الذي نصبوه للآخرين... لا أفهم حقا ما الذي يدور في رؤوسهم. ومهما بلغ مقدار ألمهم لا أشعر

بالتعاطف معهم، ذلك أني طالما عشت دون شكوى، ولو كلفني ذلك ركوب المشقات. إني جميلة، مشرقة، وإذا كنت أجذب الناس، حتى هؤلاء الذين لا أسعى لجذبهم، فأنا أعزو هذا لثمن المجد. ولذا إذا قتلت، فاعتبر الأمر مجرد حادثة! ولا تفرط في تخيل الأمور! إذ ينبغي أن تثق بي، بالمرأة التي عرفتها جيدا.

أو تعلم، لقد بذلت ما بوسعي لأكتب هذه الرسالة على الأقل في صيغة المذكر، غير أن النتيجة، كما ترى، ليست نجاحا باهرا، أشعر بحرج كبير لدرجة أنني لدي صعوبة في إكمال الرسالة. حيث إنني أصبحت امرأة منذ زمن بعيد، ومع ذلك كنت مقتنعة باستمرار بأنه مجرد دور، وبأني احتفظت بهويتي الحقة، بهويتي كرجل، لكني امرأة بالفعل قلبا وقالبا، وأم بفطرة تفوق فطرة الأمهات، وهذا مايضحكني.

أنا أحب حياتي، إني سعيدة لأني كنت رجلا ولزواجي من والدتك، ولتحولي إلى امرأة إثر وفاتها، ولأني ربيتك، ولأني عشت معك بالبهجة... ثم لأني استقبلت ميكاج! فتلك كانت ذروة السعادة! كم أشتاق لرؤيتها مجددا. هي أيضا أحببتها، كأنها ابنتي!

وها أنذا إذ أصبح عاطفية.

بلغ ميكاج محبتي، وقل لها أن تكف عن تنظيف ساقيها أمام الأولاد. فليس هذا بمنظر جميل. ألا توافقني الرأي؟

لقد وضعت داخل مغلف هذه الرسالة مجمل ثروتي. إنني متأكدة تماما أنك لا تفقه شيئا من تلك الأوراق الإدارية، لذا اتصل بمحاميّ. على كل حال، تركت لك كل شيء ما عدا البار. إنها صفقة مربحة كونك الولد الوحيد!

أريكو.

بعد أن فرغت من قراءتها أعدت طي الرسالة بعناية، مازالت بقية من عطر أريكو عالقة بها فانقبض قلبي. إنه بإمكاني أن أفتحها مجددا، وأن أعاود فتحها، أيضا وأيضا، غير أني أعلم أن هذه الرائحة سوف تزول. وهذا بالضبط ما يؤلمني أشد الألم.

استلقيت على الكنبة فعاودتني، بحنين موجع، ذكريات تلك الأيام التي كنت فيها استخدم الكنبة كسرير خلال إقامتي هنا، عندما يحل الظلام في أرجاء هذه الحجرة وتطل أخيلة النباتات المرصوفة على طول واجهة الزجاج على فضاء المدينة النائمة.

ولكني مهما انتظرت، فأريكو لن تعود قط.

قبيل الفجر كنت أسمع دندنة خافتة وقرقعة كعوب عالية تقترب، ثم صرير المفتاح في القفل. تعود من عملها ثملة قليلا فتتبهني حركتها بين الحجرات وتبقيني بين اليقظة والنوم. تدفق المياه من الدوش ووقع الخفين وهمهمة المياه التي تغلي... وإذ أطمئن إلى أنها عادت أغرق مجددا في نوم عميق، كل ليلة، الحكاية نفسها. كم أفتقدها الآن! وافتقادها يكاد يصيبني بالجنون!

هل سمع يويشي الذي ينام في الحجرة المجاورة بكائي؟ أم أنه غارق في أحلامه المؤلمة الثقيلة؟

بدأت حكايتنا، بشيء من الحياء، في ليلة الأحزان تلك.

في اليوم التالي، لم تنتشلنا اليقظة من سباتنا إلا في ساعة متقدمة من بعد الظهر، كان يوم إجازتي الأسبوعية، وعندما أطل يويشي من غرفته كنت أتصفح عناوين الجريدة متشاغلة بقضم قطعة خبز. غسل وجهه وجلس بجانبي ثم قال محتسيا حليبه الصباحي: «قد أذهب للقيام

بجولة في الكلية...».

«آه حياة الطلاب!... تحياها بلا مشقة!» وأعطيته نصف قطعة الخبز. «شكرا» قال يويشي وراح يقضمها على مهل، ومكثنا جالسين أمام شاشة التلفزيون مثل يتيمين بالفعل، فأشعرني الأمر بشيء من الغرابة.

«ميكاج.. هل ستعودين إلى بيتك هذا المساء؟» سألني فيما يهم بالنهوض.

- «أووه...» أجبت بعد هنيهات من التفكير: «قد أعود إلى بيتي بعد العشاء...»

- «رائع! عشاء تعده محترفة طبخ!» قال يويشي مغتبطا. وجدت أن الفكرة مفرحة لدرجة أنه لم يعد بإمكاني التراجع.

«حسنا، سنضع الأطباق الصغيرة في الأطباق الكبيرة! حتى لو كلفني الأمر مشقة لا يستهان بها، لكني أريدك أن ترى ماذا أصبح بإمكاني أن أفعل!».

اخترت بحماس وجبة من الأطعمة الفاخرة، وبعد أن دونت ما نحتاجه من المشتريات، قلت ليويشي بهلجة آمرة: «خذ السيارة، واذهب لشراء كل ما دونته هنا! وليس فيها سوى أشياء تحبها، لذلك عد بسرعة وفكر في المتعة التي ستنالها من الأكل حتى الموت!».

«أف! تتكلمين مثل فتاة حديثة الزواج!» وغادر الحجرة مدمدما.

انصفق الباب وراءه بقوة، وما أن أصبحت وحدي حتى أحسست بأنني منهكة القوى، كانت الحجرة غارقة في صمت مطبق لدرجة أن الثواني كانت تبدو لا تنقضي، فيما تتلاشى الأرجاء في سكون كاد يشعرني بعقدة ذنب لأنني الوحيدة التي ما زلت ناشطة وما زلت على

قيد الحياة.

تلك حال البيوت، وحالنا معها، بعد موت قاطنيها.

رقدت على الكنبة ساهية، واستغرقت - من خلال الواجهة - في تأمل الشوارع المغلفة بسحب أول الشتاء الرمادية.

كنت أشعر بأنني عاجزة عن احتمال ثقل الهواء الجليدي الذي يتسرب كالضباب في زوايا هذه المدينة كافة، بحدائقها وشوارعها وأزقتها، فأشعر بضيق، كأنني أختنق.

الأشخاص الفريدون يتألقون لمجرد حضورهم، وينيرون قلوب من يحيطون بهم وعندما يغادرون يتركون وراءهم فراغا بالغ الثقل. ربما كانت أريكو ضئيلة القامة والحجم، غير أنها امتلكت ذاك الحضور، ثم رحلت.

فيما كنت استرخي على الكنبة، يعاودني تذكار باهت.. تذكار تلك الساعات التي كان فيها السقف الأبيض مصدر اطمئنان بعد وفاة جدتي مباشرة، وعندما يكون يويشي وأريكو غائبين فترة ما بعد الظهر، إذ غالبا ما كنت أمكث وحيدة، كما هي حالي الآن مستغرقة في تأمل السقف. يوم فقدت - بوفاة جدتي - آخر فرد من أفراد العائلة، قلت في سري إن القدر يعاكسني. لا بل كنت مقتنعة أن أسوأ ما قد يصيبني قد أصابني آنذاك، غير أن هناك دائما ما هو أسوأ من الأسوأ. لقد كانت أريكو بالنسبة لي ذات أهمية كبيرة.. حسن الطالع.. سوء الطالع، من المؤكد أنها أمور موجودة ولكن أيسر ما يفعله المرء أن يستسلم لها. ولا تصبح الأمور أخف وطأة لمجرد الإيمان بها، حسن الطالع أو سوؤه. ويوم أدركت ذلك بلغت سن الرشد في شيء من التخاذل، قادرة تقريبا على أن أعيش يومي وعلى أن أعيش ضربات القدر القاسية في الوقت نفسه، مما جعل حياتي أيسر.

ولهذا بالذات، أجدني الآن منقبضة الصدر مثقلة الفؤاد.

كانت قد ابتدأت غيوم داكنة مطلية بالبرتقالي الخفيف، تتلبد في السماء لجهة الغرب. ولن يلبث الليل البارد أن يحل في الأرجاء حلول الهوينا، ويتغلغل في فراغ قلبي. أحسست بالنعاس يغلبني. «إن غفوت الآن فسترين أحلاما مزعجة»، قلت بصوت مسموع ونهضت.

لم أجد ما أفعله فقصدت المطبخ الذي لم أطأ عتبته منذ وقت طويل، لوهلة تراءى لي وجه أريكو مبتسما فأحسست بغصة في القلب ولكن كان علي أن أواصل الحركة. واضح جدا أن هذا المطبخ لم يستعمل كثيرا في الآونة الأخيرة، كان قذرا ومعتما، فشرعت في تنظيفه. لمعت المجلى بقوة، ولمعت رؤوس الغاز وصاجة الفرن وشحذت نصل سكين المطبخ، ونقعت كل الفوط في الماء وغسلتها ووضعتها في النشافة الكهربائية، وفيما مكثت هناك مصغية لهديرها أحسست ببعض الارتياح يتسرب إلى قلبي. ما المغزى من شغفي بكل ما يتعلق بالمطابخ؟ إنه لغريب حقا أمر هذا الشغف الذي يذكر بارتباط قديم، كأنه محفور في ذاكرة الروح. فما أن أطأ عتبة مطبخ ما حتى يعاودني الشغف إياه من البداية، والإحساس بأني عثرت على شيء ما.

كنت أمضيت الصيف في تعلم أصول الطبخ بمفردي، واحتفظت من هذه التجربة بانطباع لا يمكن أن أنساه، انطباع لدي بأن الخلايا تتوالد وتتكاثر في دماغي.

ابتعت ثلاثة كتب: المبادئ، والنظرية، والتطبيقات، وجربتها كلها من ألفها إلى يائها. في الباص أو على الكنبة، أصرف أوقاتي في درس مقادير السعرات الحرارية ودرجات الحرارة اللازمة والمكونات، ثم أعمد ما أن تسنح لي الفرصة إلى تطبيق ما درست عمليا في المطبخ ومازلت

حتى اليوم، أضن بهذه الكتب وأحرص عليها على الرغم من تمزق صفحاتها، إنها أشبه بألبومات الصور التي كنت أعشقها في صغري فأستعيد صفحات منها في ذهني بأدق تفاصيل رسوماتها الملونة.

كان يويشي وأريكو لا يكفان عن الترداد: «هذا غير معقول، لقد جنت ميكاج جنونا مطبقا!» وبالفعل، فقد أمضيت فترة الصيف كلها منكبة بحماسة جنونية، على تعلم الطبخ والطبخ والطبخ. وأكرس كل ما أكسبه من مال لهذا الأمر، وحين أخطئ في تطبيق وصفة ما أعاود التجربة حتى أنجح في تطبيقها. وكنت أمضي أوقاتي في إعداد الأطباق المتنوعة، بغضب شديد أحيانا، وبانزعاج أحيانا أخرى، أو بحنان.

حين تعاودني ذكريات تلك الفترة أدرك أننا أمضينا صيفا جميلا، صيفا لطالما اجتمعنا، نحن الثلاثة، حول موائده المرتجلة. كانت نسائم المساء تمر علينا من خلال الناموسية، فيما البقية المتبقية من سماء تحجبها الحرارة تتمطى بألق مائل إلى الزرقة، كنا نأكل اللحم المسلوق والمعكرونة الشريطية الباردة على الطريقة الصينية أو سلطة البطيخ الأحمر. كل هذه الأصناف كنت أعدها لهما، لأريكو التي كانت تستحسن بصوت عال كل ما أعده وليويشي الذي يلتهم كميات منها دون أن يبدر منه أي تعليق.

لزمني فترة زمنية طويلة كي أنجح في إعداد بعض الأطباق: كأصناف البيض المزين بالأطايب وأطباق الصلصلة الجميلة، والتمبورا(*)... ذلك لأن جانبا من شخصيتي، وهو الجانب غير المنظم، كان يتحول من وقت لآخر إلى عائق فعلي في وجه براعتي في المطبخ.. لم أحس يوما أنه قد يكون كذلك.. إذا لم أكن أتحلى بالصبر اللازم

(*) فطائر السمك والجمبري والخضار.

لبلوغ درجة الحرارة المثالية للطهي، أو التريث في إنضاج الصلصة. ولدهشتي الكبيرة، كانت هذه التفاصيل الدقيقة التي بدت لي نافلة، تؤثر تأثيرا مباشرا على لون أو شكل الأطعمة التي نعدها، وكان ما أحصل عليه، بعد جهد، أشبه ما يكون بالطهي المنزلي الجيد، لكنه لا يقارن بأي حال بالصور الرائعة التي أراها في كتبي.

لذا وجدتني أرضخ لضرورات التأني في ما أفعل، فأمسح القصعات بعناية فائقة، وأحكم إغلاق علب التوابل بعد كل استعمال وأفكر مليا في الخطوة التالية، حتى إذا ما شعرت بالحنق لأمر ما، توقفت عما أنا فيه لأتنفس عميقا. في البداية، كنت أظن أن استعجالي أمر لا شفاء منه، ولكنني أدركت تدريجيا أن أدائي في تحسن ويحسب من يراني أن طبعي قد تبدل بالكلية! لكن مثل هذا لم يكن بالطبع، سوى مجرد وهم.

توصلت لأن أصبح مساعدة أخصائية الطبخ التي كنت أعمل لديها، وهذه بالنسبة لي نتيجة باهرة. فبالإضافة إلى مدرسة الطبخ التي تديرها، كانت معلمتي قد حظيت بالشهرة بفضل برنامجها التلفزيوني والمقالات التي تنشرها في المجلات، ومن الطبيعي إذا أن تهرع أعداد من الفتيات للتقدم إلى المنصب الذي حظيت به، أو على الأقل، هـذا ما قيل لي فيما بعد... فبالنسبة لمبتدئة مثلي بدا الأمر مجرد صدفة هي أقرب إلى المعجزة إذ أُخترت لهذا العمل بعد صيف واحد من الإعداد، ما جعلني أشعر بغبطة لا توصف، لكنني حين التقيت الفتيات اللواتي يرتدن هذه المدرسة أدركت السبب. فقد أحسست على الفور أن المحفزات التي تدفعهن إلى العمل في المطبخ تختلف كليا عن محفزاتي.

كن يحيين سعادتهن. ومهما ازددن تحصيلا للمعارف، ومهما بلغت بهن تربيتهن- الحسنة بالتأكيد - فكن لا يستطعن تجاوز حدود هذه السعادة. أما الملذات الحقة، فإنهن يجهلن ما هي. لا يسعنا بالطبع أن نقرر ما هو الأفضل. فكل واحد منا مفطور على أن يحيا كما هو والسعادة ليست أكثر من أن تعيش حياتك دون أن يرغمك شيء على إدراك وحدتك. أنا أيضا كنت أحسب أن هذا هو الوضع الأمثل. أن أرتدي مئزرا جميلا وأن أتعلم الطبخ بوجه مشرق مثل زهرة، وأن أغرم بكل طاقتي مع كل ما يعنيه ذلك من الأسى والحيرة، لكي ينتهي الأمر بزواج جيد. أحيانا كنت أحلم بذلك. هذه الحياة الجميلة، الناعمة. خصوصا عندما أكون مرهقة، أو عندما أعاني من طفح حب الشباب، أو من أمسيات الوحدة، فأتصل هاتفيا بأصدقائي جميعهم ولا أحد منهم يجيب، عندئذ أشمئز من جذوري وماضيَّ ووجودي وأنا مليئة بالندم.

ومع ذلك، كم كانت سعادتي غامرة ذلك الصيف في المطبخ!

لم أكن أخشى شيئا، لا أن أحرق أصابعي ولا أن أجرحها، حتى ليالي الأرق لم تكن قاسية علي... كل يوم أشعر بغبطة لا توصف لأن الغد مقبل ليمنحني القدرة على مواجهة تحديات جديدة. امتزجت نثرات من روحي بفطيرة الجزر التي أجيد إعدادها عن ظهر قلب، وكنت لأهب عمري مقابل حفنة الطماطم القرمزية التي عثرت عليها في أحد المخازن الكبرى، لفرط ما أحبها.

هكذا عرفت الملذات الحقة، وما أمكنني التراجع.

كنت أريد دوما أن أحتفظ في ذهني بفكرة أنني سأموت ذات يوم. وإلا كيف أمكن الإحساس بأنني أحيا؟ لهذه الأسباب أخذت حياتي هذا المنعطف.

في كنف الظلام، نمشي بخطى متعثرة على حافة هُوَّة، قبل أن نهتدي إلى درب فنتنفس الصعداء، ونرفع رؤوسنا منهكين: وتخلب روعة ضياء القمر الألباب. تلك هي الروعة قد عرفتها.

عندما أنهيت أعمال التنظيف وأعددت العدة لتقديم العشاء، كان الليل قد حل.

قرع جرس الباب، ولم يلبث يويشي أن ظهر من فتحته مجاهدا في الدخول، وقد طوق بين ذراعيه كيسا ضخما من البلاستيك، وما أن تقدمت نحوه قال: «إنه أمر لا يصدق بالفعل!» ووضع الكيس أرضا بكثير من التثاقل.

«ما الأمر؟»

- «لقد أحضرت ما أوصيتني بإحضاره، لكنه كثير جدا بحيث لم أتمكن من حمله كله دفعة واحدة!».

- «حقا؟...» في البداية رحت أتصرف وكأن الأمر لا يعنيني ولكنني حين سمعت يويشي يهمهم تبرما، شعرت بأنني مجبرة على النزول معه إلى الموقف.

كان هناك كيسان كبيران آخران في السيارة، وبدا مجرد نقلهما منها إلى داخل الموقف أشبه بالأشغال الشاقة.

«لقد اغتنمت الفرصة واشتريت أيضا بعض ما أحتاجه»، قال يويشي الذي حمل بين ذراعيه الأضخم من الكيسين.

«بعض ما تحتاجه»؟

ألقيت نظرة على ما يحتويه الكيس الذي أحمله فرأيت عبوات شمبوان ودفاتر، وعددا من المنتوجات المثلجة. وكان ذلك كافيا لأعرف طبيعة نظامه الغذائي في الآونة الأخيرة.

«... ولكن قل لي، كان باستطاعتك أن تنقل كل هذا على دفعات!»

- «بلى، ولكن دفعة واحدة تكفي إذا كنا اثنين! آه انظري إلى القمر كم هو جميل!»

ورفع يويشي رأسه محدقا بسماء الشتاء.

«كما تشاء!» أجبته بلهجة ساخرة، ولكنني قبل أن أدخل إلى المبنى ألقيت نظرة أخيرة نحو القمر: كان قمرا شبه كامل وينير السماء بضياء ساطع.

في المصعد، قال يويشي: «لا بد أن هناك صلة ما، أليس كذلك؟»

- «ماذا تقصد؟»

- «مثلا، عندما ترين قمرا رائعا على هذا النحو، فلا بد أن يترك أثرا على الطعام الذي تعدينه... ولا أقصد بذلك صلة غير مباشرة، كأن تراودك الرغبة في إعداد طبق من التسوكيميودون(*)...».

توقف المصعد محدثا صريرا معدنيا، فأحسست فجأة ببكاء في القلب، وفيما سلكنا الرواق سألته:

«أتقصد: صلة جوهرية؟»

- «بالضبط! صلة ذات طابع شخصي...».

- «بلى، هذا صحيح! وقد يحدث!» قلت على الفور بنبرة واثقة، وخيل إلي أنني أشترك في برنامج تلفزيوني من طراز «سؤال وثروة»، حيث يعلو صراخ الاستحسان ليرج القاعة تحت أقدام جمهور هائج.

«أرأيت، هذا ما قصدت إليه! إنني كنت دوما أتخيلك تمارسين إحدى

(*) حرفيا: «المعكرونة التي نرى فيها القمر» ويقصد صنفا من حساء المعكرونة الشريطية المزينة ببيضة.

المهن الفنية وعندما عرفت المهنة التي اخترتها قلت في سري إن الطبخ، بالنسبة لك، لابد أن يكون فنا. نعم إنني أفهم ذلك... أنت تحبين عملك بالفعل! وهذا أمر غير مفاجئ بالنسبة لي. لا بل يسعدني!».

وكان يويشي لا يكف عن هز رأسه كأنه يعبر بذلك عن مباركته هذا الخيار حتى يخيل لمن يراه أنه يخاطب نفسه.

رحت أضحك: «أنت أشبه بولد صغير حقا!» فقد تحول إحساسي بالفراغ إلى كلمات نفذت إلى ذهني»

«ما أن يحضر يويشي لا أعود في حاجة لأي شيء آخر!»

لقد أثارت هذه الخاطرة العابرة كثيرا من التشوش في ذهني. فقد كان وقعها من القوة، حيث أعماني وطرد الفراغ من قلبي.

استغرقني إعداد العشاء نحو ساعتين.

وفي الأثناء تشاغل يويشي بمشاهدة التلفاز وتقشير البطاطا... بيديه اللتين يبرع في استخدامهما.

كان موت أريكو لا يزال بالنسبة لي أمرا مستبعدا لأني عاجزة عن مواجهته، إنه حقيقة مرة تدنو مني شيئا فشيئا، وافدة مما هو أبعد من الدوامة التي ترج كياني، أما يويشي فيذبل كسروة معرضة لطوفان أمطار.

لذا مكثنا سويا، لا نتجرأ على ذكر ذلك الموت مما جعلنا نفقد كل إحساس بالزمان والمكان، غير أننا لم نملك إلا أن نكون، هنا، سويا. لا نملك شيئا ولا حتى الأمل في شيء، في ذلك الكنف المطمئن الذي يشملنا بدفئه ولكن عساني كيف أقول؟ لطالما شعرت أنه ذات يوم سيكون علينا أن نبذل غاليا عوض هذا السلوان. وكان ذلك أشبه بإحساس غامر ومرعب، إحساس كان لا يزال لعظمته يثير فينا بعض

الحماسة، كطفلين ضالين في عتمات الوحدة.

كان الليل، بصفائه، قد جاوز ساعاته المتقدمة عندما شرعنا في تناول عشائنا الباذخ... سلطة ورقائق وطاجن وقضامات، التوفو(*) المحمص وأوراق السبانخ المسلوقة المتبلة بصلصلة الصويا، دجاج بالشعيرية الصينية، صدور طيور بالكييف، وكستلثة خنزير بالصلصلة المزة، وقطع اللحم الناضج على البخار... أصناف أطعمة عالمية غير أن ذلك لم يحل دون التهامها حتى النثرة الأخيرة، متمهلين كذواقة، متلذذين باحتساء بعض النبيذ.

بدا يويشي - وهذا نادرا ما يحصل معه - ثملا بعض الشيء. فعجبت للأمر: إننا لم نفرط في الشرب! فملت بعين ساهية نحو الأرض فإذا بزجاجة فارغة. لا بد أنه احتساها كاملة في انتظار العشاء. «لا عجب أن يكون في مثل هذه الحال!» فسألته مستهجنة: «أشربت كل هذا النبيذ يا يويشي؟».

ودون أن يحرك ساكنا في استرخائه مستلقيا على الكنبة أجابني بنعم وهو يقضم ضلع كرفس.

«ومع ذلك لا يبدو أنك فعلت!» قلت. وفي الحال بدا على قسمات وجهه حزن عميق. وإذ أيقنت صعوبة التعامل مع ثمل مثله سألته: «ما الحكاية؟».

فأجابني بكثير من الجد: «منذ شهر والناس يخاطبونني بمثل هذا الكلام، وهذا أمر يؤلمني».

- «الناس؟... تقصد رفاقك في الكلية؟»

(*) عجينة صويا بشكل كتل مربعة تؤكل نيئة أو مطبوخة وتقدم مع أصناف الطعام كافة.

- «أجل»
- «إذا لم تكف عن الشرب منذ شهر؟»
- «لا»
- «في مثل هذه الحال، أدرك الآن سبب امتناعك عن الاتصال بي!» قلت ضاحكة.
- «كنت أرى الهاتف مشعا»، أجابني بضحكة مماثلة. «عندما يعود أحدنا إلى بيته ليلا وقد تعته السكر، يرى أكشاك الهاتف مضاءة. حتى أنه يراها من بعد، في قلب العتمة. عندما كنت أقول في سري: يجب أن أصل إلى هناك، يجب أن اتصل بميكاج، ما هو رقمها بالضبط؟ وكنت أعثر، على الرغم من سكري، على بطاقة الهاتف الآلية وأدخل إلى الكابينة المضاءة، ولكن ما أن أعي أين أنا، وما ينبغي أن أقوله لك، كنت أفقد حماستي وأعدل عن الاتصال بك. وما أن أصل إلى البيت حتى أتهالك فوق سريري مستسلما للأحلام التي أراك فيها وأنت تبكين حنقا على الهاتف».
- «أبكي حنقا؟ هذا فقط في مخيلتك والمخيلة تضخم كل شيء»
- «أجل.. أشعر فجأة بأنني سعيد»

الأرجح أن يويشي نفسه ما عاد مدركا ما يقوله، لكنه واصل رصف العبارات واحدة تلو الأخرى بصوته الغارق في السبات.

«كانت أمي قد رحلت عن هذا العالم، ومع ذلك كنت تزورين هذه الشقة وأراك ماثلة أمام عيني وأقنعت نفسي بأنك ربما ستغضبين وتقطعين صلتك بي، وأعلم أن الخطأ خطئي. كان يؤلمني أن أستعيد ذكريات تلك الأوقات التي أمضيناها معا نحن الثلاثة، وبدا لي أنني لم أقو على رؤيتك مجددا. لطالما استهوتني أن

يمضي أناس ليلتهم عندنا على الكنبة، تعلمين جيدا، الشراشف البيضاء المنشاة، وذلك الإحساس بالسفر دون أن أغادر بيتي... في تلك الفترة كنت أعي جيدا أنني لا آكل كما ينبغي، وكم راودتني الرغبة في أن أعد لنفسي وجبة حقيقية. غير أن الطعام أيضا يشع كأكشاك الهاتف. وحين نأكله، يختفي، فوجدت الأمر مضجرا وانصرفت إلى الشراب. وكنت أقول في سري: ربما لو أخبرتها بكل شيء لوافقت ميكاج على البقاء معي أو على الأقل لقبلت أن تصغي إلى تبريراتي ولكن في الوقت نفسه كنت أرتجي هذه السعادة وأخاف انتظارها. أخاف خوفا.

فلأفترض أنني كنت مليء بالأمل، بينما أنت مليئة بكل الغضب، لذا آثرت أن أغرق وحدي في قاع الليل، ولم أكن أملك لا الصبر الكافي ولا الثقة الكافية بنفسي لكي أشرح لك كل ما يعتمل في داخلي من مشاعر.

- «هذا هو أنت، حقا!»

شاب صوتي بعض الغضب غير أن نظرتي إليه سرعان ما رقت لحاله، فالتواطؤ الذي نشأ بيننا منذ الفترة التي عشنا فيها سويا أدى إلى تفهم عميق في نفسي أشبه بالتواصل عبر التخاطر. يبدو أن مشاعري المعقدة انتقلت بالعدوى إلى هذا الثمل. فقال يويشي: «لو أن هذا اليوم يدوم إلى الأبد! وكم أود أن تصبح الليلة أبدًا. ميكاج ما رأيك لو تستقرين هنا على نحو دائم؟...»

- «إنها ليست بفكرة سيئة» أجبته بلطف متعمد، لاقتناعي بأن هذا كله ليس سوى تخريف سكير. «ولكن يجب ألا تنسى أن أريكو ما عادت هنا! وإذا عشنا سويا، ماذا أكون بالنسبة لك؟ امرأة امرأة، أم مجرد

صديقة؟»

- «قد نبيع الكنبة ونشتري سريرا كبيرا؟» قال يويشي ضاحكا، ثم أردف قائلا بكثير من الصراحة: «أنا نفسي لا أعرف».

صراحة إجابته المحبطة أثرت في، وتابع يويشي قائلا: «في الوقت الحالي أشعر بأنني عاجز عن التفكير في أي شيء. المكانة التي تحتلينها في حياتي، وما المصير الذي ينتظرني وما سيتغير بالنسبة لي وكيف، كل هذه الأمور لا أعرف الآن عنها شيئا. طبعا بإمكاني دائما أن أفكر فيها، غير أن النتيجة في مثل حالي لا تعني شيئا، لذا أفضل ألا أتخذ قرارات. ينبغي أن أنجو من هذه الحال. وأود أن أنجو منها في أسرع وقت، لكني الآن لا أجرؤ على استدراجك إليها ولن تعرفي السعادة إذا غرقت معي في الموت... وإذا كانت تلك هي حالنا فإن وجودنا معا لن يساعدنا على تجاوزها!».

- «لا داعي للانهمام بكل هذه الأمور في وقت واحد، يا يويشي! غدا سيطلع نهار آخر!» قلت وبي رغبة غامضة في البكاء.

- «أنت على حق، ولابد أنني عندما أستيقظ غدا، سأنسى كل ما حصل الليلة فمثل هذا يحصل معي دائما في هذه الآونة. لا شيء يدوم أكثر من يوم واحد».

تهالك يويشي على الكنبة وقال هامسا: «إنني في حالة يرثى لها!...» بدت الحجرة المبطنة بصمت المساء كأنها تصغي إلى صوته. يبدو أن الحجرة أيضا لم تستطع بعد أن تعتاد غياب أريكو. كان الليل يوغل في عتمته المتمادية زاحفا بثقله علينا ويشعرني بأننا ليس لدينا ما نتقاسمه.

أحيانا، كنا نتسلق، يويشي وأنا، سلما ضيقا أسند إلى ظلمة حالكة

السواد، ومن قمته نطل بجسدينا على فوهة أتون الجحيم. شدة الحرارة التي تلهب وجهينا تصيبنا بالدوار فيما نشاهد غليان البحر من النيران المستعرة ذات الزبد الأرجواني. إنه هنا، إلى جانبي، أقرب الناس إلي، الصديق الذي لا صديق سواه، ومع ذلك يدانا لا تلتقيان حتى لو شعرنا بأننا ضائعون تماما، فإن كلا منا يحاول أن يقف بثبات على ساقيه غير أني حين ألمح سيماء القلق على وجهه الذي تنيره ألسن اللهب، أسأل في سري دائما إن لم يكن هذا هو الجوهري حقا. في الواقع، نبدو كشقيقين، كشقيق وشقيقة، ولكن ألسنا في المعنى الأصلي للعبارة، زوجين حقيقيين؟ ومهما يكن فإن هذا المكان مرعب جدا. وكيف لنا أن نحظى فيه بالسلام؟

ولكن الأحرى بك ألا تلعبي دور الوسطاء الروحيين!

كنت مستسلمة لأحلامي حين راودتني فجأة تلك الفكرة فأثارت في جنون الضحك. كم هي جميلة فكرة هذين الزوجين اللذين يفكران في انتحار مزدوج عند فوهة آتون الجحيم! فمن شأن هذا أن يجعل حبهما مشويا هو أيضا، على مثالهما! لقد سمعت شيئا من هذا القبيل ذات يوم، ما جعلني أغيب في نوبة أخرى من الضحك.

يويشي على حاله غارق في سبات عميق على الكنبة، ولمحت على وجهه سيماء غبطة لأنه استطاع أن ينام قبلي. غطيته فلم يحرك ساكنا، وحرصت بشدة على ألا تحدث المياه الجارية من الصنبور جلبة توقظه، وذهبت لأغسل الأطباق المكدسة أكواما، وأنا أجهش بالبكاء.

ليس لأن غسل الأطباق يشق علي بمفردي بل لأنني شعرت بأنني تركت وحدي في تلك الليلة المفعمة بالكآبة.

ضبطت المنبه لكي أتمكن من الذهاب إلى العمل عند ظهيرة اليوم التالي فأيقظني رنينه الخافت المزعج... وبحركة عفوية مددت ذراعي.. كان ذلك رنين الهاتف، فرفعت السماعة.

ما إن هممت بالرد حتى أيقنت أنني لست في منزلي فاستدركت قائلة: «آلو، هذا بيت آل تاناب».

أقفل الخط على عجلة وبعصبية واضحة. لابد أنها فتاة... قلت في سري وذهني المشوش من ثقل النعاس ينبئني بأنني ارتكبت هفوة ما، والتفت نحو يويشي: كان لا يزال غارقا في سباته العميق.. سيان، قلت في سري، وحين أصبحت مستعدة للمغادرة، خرجت من الشقة على رؤوس أصابع قدمي. كان النهار كله أمامي لكي أحسم أمري وأقرر إذا كنت سأعود إلى بيت يويشي عند المساء.

وصلت إلى مكان عملي.

فمدرسة الطبخ المؤلفة من قاعات للأعمال التطبيقية وستديو للتصوير، تحتل طابقا كاملا من مبنى ضخم، المديرة في مكتبها تقرأ بعض المقالات. مازالت امرأة شابة، وطباخة ممتازة، مرهفة، حلوة المعشر. كالعادة ابتسمت حين رأتني ورفعت نظارتها عن عينيها وراحت تملي علي التعليمات اللازمة لهذا النهار.

كان الدرس الذي يبدأ عند الثالثة بعد الظهر يتطلب عددا لا بأس به من التحضيرات، ولكن ما أن تنجز التحضيرات كلها فإنني لست مضطرة للبقاء لوقت طويل، وذلك لأن هناك مساعدة أخرى ستتواجد في أثناء الدرس. ينتهي إذاً عملي اليوم قبل حلول المساء. فأحسست بشيء من الإحباط غير أنها سرعان ما أرفقت كلامها باقتراح جاء في محله.

(*) شبه جزيرة تقع على بعد ١٥٠ كيلومترا جنوبي غربي طوكيو.

«آنسة ساكوراي، سيتوجب علي بعد غد أن أغادر إلى منطقة إيزو(*)، حيث سأجري تحقيقا صحافيا يستغرق أربعة أيام.. اعذريني لإبلاغك في اللحظة الأخيرة، ولكن هلا قبلت بمرافقتي؟

- «إلى ايزو؟ ولعمل تحقيق صحافي لمجلة؟» سألت باندهاش.

- «أجل... فالمساعدات الأخريات لديهن ما يحول دون سفرهن. وفكرة التحقيق هي تعريف القارئ بالمأكولات الخاصة التي تقدمها النزل هناك، مرفقة ببعض الشروحات حول كيفية إعدادها.. فما رأيك؟ سوف نزور أماكن لطيفة وستكون لك غرفتك الخاصة... أريد أن أعرف ردك بأسرع ما يمكن. لنقل... هذا المساء...»

أجبتها على الفور ومباشرة بعد انتهائها من كلامها. «سأذهب معك» إنه هذا هو «النعم» الواضح والصريح.

«بذلك تؤدين لي خدمة كبيرة، بالفعل»، قالت مبتسمة.

في طريقي إلى المختبر، شعرت فجأة بشيء من الخفة في صدري، فقد بدا لي أن الابتعاد لبضعة أيام عن طوكيو ويويشي لابد أن يكون هو الحل المناسب.

عندما فتحت الباب كانت نوري - شان، وكوري - شان، اللتان باشرتا العمل كمساعدتين قبلي بعام واحد، منهمكتين في إنجاز التحضيرات.

«ميكاج، هل أخَبَرتْكِ بشأن رحلة إيزو؟» سألتني كوري - شان ما أن رأتني.

- «ستكون رحلة رائعة، ويقال إن هناك الأطباق الفرنسية! وكذلك منتجات البحر المتنوعة»... قالت نوري - شان وهي تبتسم.

«ولكن لِمَ تم اختياري أنا؟»

- «بسببنا نحن، فلن تتمكن أي منا الذهاب لارتباطنا بدورة في لعب

الغولف. ولكن إذا كان هناك أي عائق يحول دون سفرك فستعمد إحدانا إلى إلغاء هذا الارتباط للحلول محلك. أليس كذلك يا كوري - شان؟»

- بالتأكيد يا ميكاج. ما عليك إلا أن تصارحينا!»

كان عرضهما بالغ الكياسة وصادقا، غير أني هززت رأسي مبتسمة وقلت لهما «لا، لا، ليس هناك أي مشكلة»

نوري - شان، وكوري - شان تخرجتا من الجامعة نفسها والتحقتا سويا، من خلال علاقاتهما، بهذه المدرسة. ويمكن القول إنهما محترفتان بالفعل: فلكل منهما خبرة أربع سنوات في هذا المجال.

كوري - شان فتاة مرحة وجذابة، ونوري - شان تحرص على الظهور في مظهر «الحسناء ذات الحسب والنسب». التفاهم بينهما على أكمل وجه. ملابسهما تبدو غاية في الأناقة، وسلوكهما مفعم باللباقة والكياسة. متحفظتان، محببتان، ومتأنيتان. حتى بين الفتيات المتحررات من أوساط ميسورة واللواتي يمكن أن نصادفهن بكثرة في عالم الاهتمام بالمطبخ والمأكولات، فقد كان لهما سحرهما المميز والأصيل.

أحيانا، حين تتصل والدة نوري - شان هاتفيا ويصادف أنني أنا من يرد على الهاتف، لا أستطيع إلا أن أشعر بارتباك شديد حيال لطفها ورقتها، ويذهلني دائما أن أعلم أنها تعرف كل شاردة وواردة في حياة ابنتها، أهذا ما يمكن أن نسميه بـ «الأم الصالحة»؟

أما نوري - شان فلا تكف عن العبث بشعرها الطويل الرائع وهي تحادث أمها على الهاتف بصوت نقي حاد تتخلله ضحكات مقتضبة.

لهاتين الفتاتين حياة لا تشبه في شيء حياتي أنا، ومع ذلك كنت أحبهما كثيرا.

يكفي أن أناولها ملعقة سكب، وهذا أمر نافل وبسيط، حتى تبتسمان

لي عرفانا وامتنانا، وإذا أصبت بزكام بسيط انتابهما القلق بشأني وراحتا تسألان عن حالي باستمرار. كانت رؤيتهما وهما تضحكان من طرف خفي تحت أضواء الصالة الباهرة، بمئزريهما الأبيضين، تثير في إحساسا بالغبطة حتى الدموع، لقد كان العمل معهما متعة حقة وملاذ راحة.

كان لدينا الكثير لنفعله حتى الساعة الثالثة: وزن مقادير المكونات التي ستستخدم لتمارين الطبخ، وتوزيعها على قصع بعدد التلاميذ الحاضرين، وغلي مقادير هائلة من المياه.

في هذه الحجرة ذات الواجهات الزجاجية الواسعة والحسنة الإضاءة، وُضعِت صفوف من الطاولات الكبيرة التي تم تجهيز كل منها بفرن وصفائح كهربائية وسخان على الغاز، مما يذكر، بالفعل، بقاعة تدريس الشؤون المنزلية. كنا نعمل بحماسة ونتبادل أطراف الحديث عن أي شيء وكل شيء.

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عندما تناهى إلى سمعنا طرق واضح على الباب.

«أتراها المعلمة؟» قالت نوري - شان بشيء من التوجس.

وأضافت بصوت خفيض: «ادخل».

«يا إلهي!! لقد نسيت أن أنزع الطلاء عن أظافري! سوف أتعرض للملاحظة» حين رأيت ارتباك كوري - شان، انحنيت على حقيبتي أبحث فيها عن مزيل الطلاء.

في الأثناء، فتح الباب وسمعنا صوت أنثوي يسأل:

«هل ميكاج ساكوري موجودة هنا؟»

وإذ فوجئت بسماع اسمي نهضت لأتبين الأمر وإذا بفتاة لا أعرفها تقف عند مدخل الحجرة.

مازالت ملامح وجهها تحتفظ بسيماء الطفولة. بدا أنها تصغرني سنا، قصيرة القامة وفي عينيها المدورتين بريق قاس. كانت ترتدي معطفا بنيا فوق كنزة خفيفة صفراء، وحذاء سكري، واقفة هناك، بلا حراك، قبالتي. كانت ساقاها مفتولتين قويتين بمقدار ما تبدوان مثيرتين كبقية أنحاء جسدها البارزة باستدارات واضحة. جبينها ضيق تبرزه قصة الغرة المميزة، وفي تدوير وجهها البيضوي المسطح قليلا، تبرز شفتاها الحمراوان كأنهما أطبقتا على إحساس عميق بالغضب.

لا أجدها منفرة على وجه خاص... قلت في سري بشيء من الارتباك. وأمعنت النظر والتفكير ولم أر أنني قد أكون التقيتها من قبل، فبدا لي الأمر مستهجنا وغريبا.

كانت نوري - شان، وكوري - شان، في ارتباكهما ترمقانها بنظرات مواربة. فكان علي أن أبادر إلى سؤالها «عذرا، ولكن من أنت؟».

- «أدعى أوكونو. ولدي ما أقوله لك»، قالت بصوت حاد تشوبه بحة خفيفة.

- «إني آسفة ولكنني الآن في وقت دوام عملي، هلا اتصلت بي هذا المساء في منزلي؟»

لم أكد أنهي كلامي حتى جاوبتني بنبرة حادة: «أتقصدين في منزل آل تاناب؟».

فأدركت، أخيرا، ما الأمر: إنها الفتاة التي اتصلت هذا الصباح، إنها هي بالتأكيد.

«إنك مخطئة»، أجبتها قائلة.

- «ميكاج»، قالت كوري - شان، «بإمكانك أن تغادري الآن إذا شئت، وسنبلغ المديرة بأنك اضطررت لإنجاز بعض الأمور الخاصة بسبب

سفرك المفاجئ!».

- «لا داعي لذلك. لن أمكث هنا لوقت طويل»، قالت الفتاة.

- «هل أنت صديقة يويشي تاناب»؟ سألتها وأنا أحاول أن أحافظ على هدوئي.

- «أجل، فنحن نتابع المحاضرات نفسها في الكلية... وجئت اليوم لأطلب منك شيئا وسأكون صريحة: دعي تاناب وشأنه!»

- «هذا أمر يقدره تاناب نفسه»، قلت، «وهذا ليس من شأنك أنت حتى ولو كنت صديقته»

التهبت وجنتاها غضبا وقالت: «ولكن، أتجدين الأمر طبيعيا؟ تقولين إنك لست صديقته، وفي الوقت نفسه لا تتحرجين من زيارته.. لا بل تنامين عنده أحيانا، أي أنك تفعلين ما يحلو لك! أليس هذا أسوأ من عيشكما سويا تحت سقف واحد!» بدا أنها على وشك البكاء. من المؤكد أنني لا أعرف تاناب كما تعرفينه أنت لأنك أقمت معه في بيت واحد، وأنا لست سوى رفيقة دراسة، لكني راقبت سلوكه وأحبه على طريقتي. إنه ضائع منذ وفاة والدته. ذات يوم ومنذ بعض الوقت، بُحْتُ له بمشاعري. فأجابني: «ولكن... هناك ميكاج...». وعندما سألته إذا كنت حبيبته هز رأسه وأجابني: «من الأفضل عدم الخوض في هذا الموضوع حاليا...» وكنت أعلم، كما يعلم الجميع في الكلية، أن هناك فتاة تقيم في بيته، فلم ألح عليه بالسؤال.

- «ولكني لم أعد مقيمة في بيته!»

قاطعت عبارتي المستفزة وأردفت قائلة: «كل ما تفعلينه هو أنك تتهربين من مسؤوليات الحبيبة! أنت تستغلين الجوانب المريحة من الحب لا أكثر، وفي نهاية الأمر وجد تاناب نفسه عاجزا عن اتخاذ أي قرار.

لا تكفين عن مراودته بذراعيك الرقيقتين وشعرك الطويل وبكل المظاهر التي تجعلك امرأة في عينيه، فيزداد جبنا! أهون الأمور أن يبقى المرء على هذه الحال إلى ما لا نهاية، لا خطوة إلى الأمام، ولا خطوة إلى الوراء. ولكن ألم يخطر ببالك أن الحب مسألة أكثر جدية تلزمك بالانتباه إلى الآخر والاهتمام به؟ أنت ترفضين مثل هذا الحمل، وتقفين حيث أنت كأن الأمر لا يعنيك.. زاعمة بأنك تفهمين كل شيء.. أرجوك دعي لتاناب حريته! فما دمت هنا، أمام عينيه، لن يتمكن حتى من الحراك».

بدا لي بوضوح أن بصيرة هذه الفتاة ترى الأمور من وجهة مصلحتها هي غير أن عنف عباراتها أصابني في بعض المواضع الحساسة فأحسست بحرج. ولما أدركت أنها تهم بمتابعة كلامها صرخت بها: «كفى» فأجفلت ولزمت الصمت.

وأردفت قائلة: «أدرك تماما ما تعانيه، ولكن الحياة تفرض على كل منا أن يحاول، بطريقته الخاصة، تحمل التبعات المترتبة على مشاعره... في كل ما أسلفت قوله، هناك أمر وحيد لم تأت على ذكره، وهو، لمحض المصادفة، مشاعري أنا. إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي نلتقي فيها، فكيف لك أن تؤكدي بثقة أنني لا أفكر في شيء؟».

- «وأنت، كيف لك أن تتكلمي بمثل هذه البرودة؟» أجابت باكية. «أتزعمين أنك أحببت دوما تاناب على الرغم من تصرفاتك؟ لا يمكنني أن أصدق. لم يمض على وفاة أمه سوى وقت قليل، ولك كل الجرأة على زيارته وتمضية الليل في بيته! إنه لأسلوب مقزز في التصرف!».

غص قلبي بمرارة الحزن. فهذه الفتاة لا تعرف أن والدة يويشي

رجل، ولا تعرف كيف كان حالي يوم استقبلاني في منزلهما، ولا طبيعة العلاقة المعقدة التي تربطني بيويشي هذه الأيام، وكم أصبحت هشة كعود من القش، لا، لا تعرف ولا يبدو أنها تسعى لأن تعرف. جاءت فقط لتضعني على المحك. تعلم جيدا أنها تسعى وراء حب غير متبادل ومع ذلك هرعت بعد اتصالها الهاتفي هذا الصباح، للاستفسار عني، عمن أكون وأين أعمل، فدونت العنوان واستقلت القطار لتأتي إلي.. ربما من مكان بعيد. كم بدت لي جهودها عبثا، دافعها الحزن والمرارة! أتخيل ما قد تشعر به هذه الفتاة كل يوم، وما كان يجول في رأسها من أفكار حين دخلت هذه الحجرة مدفوعة بغضبها غير المبرر، وأعلم أن حالها مثيرة للشفقة.

«أنا أيضا أعتقد أنني امرأة حساسة»، قلت «وأنا أيضا فقدت منذ أمد ليس ببعيد، شخصا مقربا، ثم إن هذا المكان هو مكان عمل، وإذا كان لا يزال لديك ما تقولينه...».

أردت أن أقول: «... ليس عليك إلا أن تتصلي بي في منزلي» غير أن عبارة أخرى خرجت من فمي: «سوف أبكي وأطعنك بسكين مطبخ إذا كنت موافقة...» أعترف أنه مخرج تافه للموقف فرمقتني بنظرة كابية وقالت ببرودة: «لقد قلت كل ما وددت قوله! والآن سوف أترككم»، واتجهت نحو الرواق مقرقعة كعبيها على البلاط وانصفق الباب وراءها بجلبة حنق.

كانت تجربة مريرة، تلك المحادثة المجابهة بين مصلحتين متضاربتين.

«لم تكن غلطتك يا ميكاج!» قالت كوري - شان بشيء من الاهتمام وقد دنت مني.

«هذه الفتاة ليست على ما يرام وأعتقد أن الغيرة قد أسقمتها. بالله

عليك يا ميكاج دعك منها!» أضافت نوري - شان بكثير من الرقة وهي ترمقني بنظرات مؤازرة.

أما أنا فأطلقت زفرات ضيق واقفة كتمثال وسط حجرة المختبر التي تنيرها أشعة ما بعد الظهيرة الدافئة.

مررت بمنزل يويشي عند المساء لأحضر منشفتي وفرشاة أسناني اللتين نسيتهما هناك. لم أجد أحدا: يبدو أنه غادر بعد نهوضه فأعددت لنفسي طبق أرز بالكاري وأكلت وحدي.

من أيسر الأمور علي وأكثرها عادية أن أعد لنفسي وجبات الطعام وأتناولها في هذا البيت... وكنت مستغرقة في تفكيري وهو مجرد إجابة عن سؤال طرحته على نفسي، عندما عاد يويشي.

«مساء الخير!» بادرته قائلة، لم تكن لديه أدنى فكرة عما حصل كما أن لا علاقة له بالأمر إطلاقا، ولكني على الرغم من ذلك، شعرت بأنني عاجزة عن النظر مباشرة في عينيه. «لم يكن الأمر بالحسبان يا يويشي، ولكني مضطرة إلى الذهاب إلى إيزو بعد غد في رحلة عمل. وأمس حين أتيت كنت قد تركت بيتي عائما في الفوضى وينبغي أن أرتب حاجياتي قبل رحيلي، لذلك فمن الأفضل أن أعود إليه هذه الليلة، وبالمناسبة، إذا كنت جائعا، فهنالك بقية من الكاري...».

- «هكذا إذا؟ حسنا سأنقلك بسيارتي!» قال مبتسما.

... انطلقت السيارة وراحت تعبر الشارع بسرعة ولن يستغرقنا الوصول إلى بيتي أكثر من خمس دقائق.

«يويشي...» قلت.

- «ماذا؟» أجابني دون أن يلتفت نحوي.

- «أوه... هلا... هلا قصدنا مكانا نحتسي فيه كوبا من الشاي»

- «ظننت أنك على عجلة من أمرك ليتاح لك ترتيب حقائبك، أما فيما يعنيني أنا فأرحب بذلك»

- «أنت محق في ما تقوله ولكن... لدي رغبة عارمة في احتساء كوب من الشاي...».

- «حسنا هيا بنا! أي محل تختارين؟»

- «م م م... هلا قصدنا ذلك المكان الذي يقدم كل أصناف الشاي! ذلك المقهى، في الطابق الأول، فوق صالون الحلاقة...»

- «لكنه بعيد جدا عن وسط المدينة!»

- «أعلم ذلك، ولكني أحسب أنه الأفضل...»

- «فليكن، هيا بنا!»

لم يسع لأن يعرف المزيد عن هذه النزوة المفاجئة، فهو على عادته، مفرط في لطفه. وتهيأ لي، لشدة ما كنت محبطة، انني حتى لو طلبت منه أن نرحل على الفور إلى شبه الجزيرة العربية لنتأمل ضوء القمر، لما قال «لا» على الإطلاق.

كان المقهى الصغير الذي يقع في الطابق الأول من المبنى هادئا ومشعشعا، جدرانه بيضاء، وتشيع أنظمة التدفئة فيه تدفئة ناعمة. جلسنا وجها لوجه إلى الطاولة في نهاية الصالة، وكنا الزبائن الوحيدين، وكانت تتردد أنغام موسيقى فيلم خافتة في الأرجاء.

«يويشي إنه أمر لا يصدق ولكنها المرة الأولى التي نجلس فيها معا في مقهى»

- «صحيح؟»

واستدارت عيناه استهجانا. كان يحتسي ذلك النوع من الشاي

الرديء الذي أكره، فعادت بي الذكريات إلى بيت آل تاناب والصابون ذات الرائحة نفسها والتي تغشو في ساعات متأخرة من الليل، عندما أكون مستلقية أمام التلفزيون الذي جعلت صوته غمغمة غير مسموعة، ويغادر يويشي غرفته ليعد لنفسه كوبا من الشاي.

في تداعيات الزمن والمشاعر الهشة، تركت كل ضروب الذكريات ميسمها على حواسي الخمس، تفاصيل تافهة، غير أنها لا تعوض، تتبثق فجأة في ليلة شتاء، في ذلك المقهى.

«تخيلي أننا احتسينا معا كميات هائلة من الشاي ولم أع من قبل... ولكن حين ذكرت الأمر الآن أدركت أن هذا صحيح»

«أرأيت أنه أمر غريب؟»، وضحكت.

«أشعر بأنني منقطع كليا عن الواقع»، قال يويشي محدقا بثبات بضوء المصباح الصغير على الطاولة. «لابد أنني في حال من الإعياء التام».

«بالتأكيد، هذا أمر طبيعي»، أجبته وكأن اعترافه باغتني.

– وأنت أيضا، كم كنت مرهقة إثر وفاة جدتك. إنني أتذكر ذلك جيدا الآن. ففي معظم الأحيان كنا نجلس لمشاهدة التلفزيون، أنت مستلقية على الكنبة وكنت أحيانا أرفع رأسي لأسألك: «هل فهمت ما قيل؟» غير أني كنت أرى في عينيك أنك غائبة، وأنك لا تفكرين في شيء. الآن أدرك جيدا معنى هذه الحال.

«باستطاعتي أن أقول لك يا يويشي إنني سعيدة بك لأنك قادر على تحمل الصدمة، حيث إنك تخاطبني بهذا القدر من الهدوء والتماسك، حتى أنني أشعر بالفخر!».

– «ما هذا الهراء الذي تقولينه؟ من يسمعك يحسب فعلا أنك تتولين

الدبلجة بالإنجليزية!» قال يويشي وقد أضاءت اللمبة ابتسامته ولمحت كتفيه ترتعشان تحت كنزته الكحلية.

«بأية حال...» وكنت سأضيف: «إذا كان هناك ما يمكنني فعله، ليس عليك إلا أن تخبرني» ولكني أحجمت. فكل ما أردته آنذاك وفي خلوتنا أن تمنحه انطباعات تلك اللحظة المتوقدة، وطعم الشاي والأنوار ودفء المكان.. أن تمنحه ولو أقل العزاء.

غير أن هناك دوما في الكلمات مقدارا من الفظاظة والتي من شأنها أن تطمس أبهى ما في هذه اللحظات الناعمة.

عندما غادرنا المقهى أخذنا الليل الوافد في رقراق دكنته وكان البرد قارسا.

وحين هممنا بركوب السيارة بادر يويشي كعادته إلى فتح الباب لجهة مقعدي قبل أن يستقر على مقعده. وما أن انطلقت السيارة بنا، قلت له: يندر أن نجدِ رجلا يفتح باب السيارة لامرأة. ففي نهاية الأمر، ربما هذه هي اللباقة...».

- «أريكو هي التي ربتني على هذا النحو»، قال يويشي ضاحكا «وإذا حصل أن سهوت عن ذلك كانت ترفض رفضا قاطعا ركوب السيارة!».

- «يا للكياسة»، أقصد بالنسبة لرجل!» ورحت أضحك أنا أيضا.

«لقد قلتها بنفسك: يا للكياسة!»

ران صمت كأنه ستارة مسدلة.

المدينة ليلا. عند الإشارات الضوئية الحمراء، كان المارة، كل المارة الذين يعبرون من أمام الزجاج، مستأجرين وموظفين، فتية وعجائز، يبدون أجمل تحت الإضاءة. ففي تلك الساعة من اليوم، وخلف غلالات الليل الباردة الصامتة، كان كل منهم يتجه مرتديا معطفه أو سترته، إلى

حيث لا أحد يدري، إلى مكان ينعم فيه بالدفء.

... فجأة تخيلت أن يويشي يفتح باب السيارة أيضا لتلك الفتاة الرهيبة التي التقيتها بعد الظهر، ودون أن أعي سببا لذلك سرعان ما أحسست بأن حزام الأمان يثقل على صدري ويخنقني. وبعد هنيهه قلت في سري مذهولة: «أليست هذه هي الغيرة؟» وبدأت أفهم مثل طفل يتدرج في تعلم الألم. منذ وفاة أريكو، أنا ويويشي، طافون في العتمات من دون جاذبية، لم نفعل سوى أننا واصلنا سباقنا عبر نهر من النور، وها نحن على وشك بلوغ اليابسة.

كنت أعلم ذلك. كنت أعلم ذلك من لون الهواء، من هيئة القمر، من حلكة سماء الليل التي تجوب الحاضر. كانت عمارات المدينة ومصابيحها تسطع بأنوار باهرة.

ركن يويشي سيارته أمام المبنى وقال: «أرجو أن تأتيني بتذكار...».

سوف يعود إلى شقته وحيدا. وأول ما يفعله هو أن يسقي النباتات.

«ماذا أحضر لك مثلا؟ رقائق بالأنفليس؟» سألت ضاحكة. كانت أنوار المصابيح لا تضيء وجه يويشي إلا جزئيا فلا أستطيع أن أراه بوضوح.

«رقائق بالأنفليس؟ يا للأفكار النيرة، يكفي أن أذهب إلى محطة طوكيو للقطارات وسأجد منها كميات في الأكشاك»

- «أو ربما... بعض الشاي؟»

- «لم لا تكون بالخردل؟»

- «ماذا؟ أتأكل هذا الشيء؟ أنا شخصيا لا أتمكن من ازدراده»

- «بصراحة، وأنا أيضا، إلا إذا كانت مرفقة ببيض الرنكة»

- «حسنا سأشتري لك بعضا منها!»

وفتحت باب السيارة وأنا أضحك.

لفحني في الحال هبوب قارس ما لبث أن تغلغل في أرجاء السيارة الدافئة.

«برد، صرخت، برد يايويشي، أشعر بالبرد، بالبرد!»، ومتشبثة بذراعه وألقيت برأسي على صدره. كانت سترته فاترة تفوح منها رائحة أوراق الشجر اليابسة.

«من المؤكد أن الطقس أفضل ناحية إيزو» قال يويشي كأنه لا يعني ما يقول وطوق رأسي بذراعه الأخرى.

«متى ستعودين؟» سألني دون أن يرخي ذراعيه اللتين تطوقان رأسي، فسمعت تردد صوته داخل صدره.

«في غضون أربعة أيام» قلت مبتعدة عنه قليلا.

«عندها أعتقد أن عشرتي ستكون قد أصبحت أخف وطأة. فنستأنف جلسات الشاي في الخارج». قال هذا ونظر إلي مبتسما.

«اتفقنا» قلت. ثم غادرت السيارة ولوحت بيدي مودعة.

لنعتبر أن ما حصل من سوء في هذا اليوم لم يحصل، قلت في سري فيما عيناي تتبعان السيارة المبتعدة.

من له أن يقرر إذا كنت الفائزة أو الخاسرة قياسا بتلك الفتاة؟ لا أحد يستطيع أن يعرف أينا نحن الاثنتين تتمتع بالموقع الأفضل؟ إلا إذا أخذ أفعالنا كافة بعين الاعتبار. وبأية حال ما من معيار في هذا العالم لقياس مثل هذه الأمور، وخصوصا أني في ليلة باردة مثل هذه، كنت عاجزة عن الاعتراف بأي شيء ولم تكن لدي أدنى فكرة.

هذه واحدة من الذكريات المتبقية من أريكو ولعلها أشدها حزنا.

كانت تعنى بأنواع النبات كافة، وترصفها على طول الواجهة الزجاجية، غير أن النبتة الأولى التي اقتنتها كانت نبتة أناناس في أصيص.

روت لي ذلك ذات يوم.

«... كان ذلك في عز الشتاء»، قالت مستهلة حكايتها.

«وكنت، يا ميكاج، ما زلت آنذاك رجلا»

«كنت رجلا وسيما، بعينين مغوليتين، أكثر مما هما الآن، وأنف أقل بروزا. كان ذلك قبل أن أغير ملامح وجهي فما عدت أذكر الآن تفاصيل طلعتي آنذاك!».

كنا في فصل الصيف، عند بزوغ الفجر، والجو يميل إلى طراوة منعشة. كان يويشي غائبا، لم يمض ليلته في البيت ذلك اليوم، وأريكو عادت لتوها من عملها حاملة بعض الفطائر باللحم، كان أحد الزبائن قد جلبها معه، وكعادتي كنت مستغرقة في مشاهدة برنامج طبخ سجلته في فترة ما بعد الظهر، ومنهمكة في تسجيل بعض الملاحظات انطلاقا منه. وكانت سماء الفجر الزرقاء ابتدأت تنقشع رويدا في جهة الشرق. «ماذا لو أكلنا هذه الفطائر الآن؟» اقترحتُ قائلة، وبعد أن سخنتها في الفرن أعددت شايا بالياسمين وعندئذ بدأت أريكو بسرد هذه الحكاية.

فاجأني الأمر في البداية، غير أني قلت في سري لا بد أن أمرا ما غير مستحب قد حصل في البار، فأصيغت ساهية يغالبني النعاس. وكان صوتها يتردد مثل أصداء في حلم.

«إنها حكاية قديمة جرت أحداثها يوم كانت والدة يويشي لا تزال على فراش الموت. أقصد، بالطبع، زوجتي، المرأة التي أنجبته. كانت

تعاني من مرض السرطان، وكانت حالها تتردى من سيئ إلى أسوأ. تعلمين أننا كنا متحابين بالفعل، فاتفقت مع الجيران على أن يتولوا رعاية يويشي في غيابي وبذلك أتمكن من البقاء إلى جانبها في المستشفى. كل يوم كنت أمضي كل أوقاتي تقريبا إلى جانبها عدا مواقيت العمل خلال النهار. أما أيام الأحد فكنت أصحب يويشي إليها، غير أن المسكين كان أصغر من أن يدرك حقيقة الأمر... ويمكنني القول الآن إن كل رجاء رجوته في ذلك الوقت، حتى أقل الرجاء، لم يكن بعيدا عن اليأس. لم أدرك ذلك حينها، ولكني الآن إذ أستعيد الذكرى أرى الأمور أشد سوادا».

كانت أريكو تواصل كلامها مطرقة كأنها تسر إلي بذكريات رقيقة. وبدت في ضياء السماء لمطلع الفجر غاية في الجمال.

ذات يوم قالت لي زوجتي: «كم أود أن يكون في هذه الغرفة ما يضفي عليها بعض الحياة» وأردفت قائلة: «أريد شيئا حيا، له صلة بالشمس، وجدتها: نبتة، أجل أود أن تكون نبتة ولكن شرط ألا تتطلب كثيرا من الرعاية والاعتناء. لو تستطيع أن تحضر لي نبتة في أصيص كبير...» وبما أنه نادرا ما كانت تعبر عن رغبتها في الحصول على شيء، هرعت إلى أقرب بائع زهور. أتعلمين، كنت آنذاك من الصنف الذكوري، فلم أكن أفقه شيئا في أصناف «لبان جاوة الغاري» أو «السنبولياس»، غير أني قلت في سري أن «قزم الصبار» قد يكون مستحسنا... وفي نهاية الأمر ابتعت نبتة أناناس. بثمارها الصغيرة يسهل التعرف عليها، حتى أنا لم أخطئ في ذلك. وعندما دخلت غرفتها حاملا الأصيص بين ذراعي بدت سعيدة جدا وشكرتني مرارا.

«ثم حين اقتربت النهاية، قبل أن تغرق في غيبوبتها بثلاثة أيام، قالت

لي فجأة وكنت أهم بمغادرتها: «هلا نقلت نبتة الأناناس إلى المنزل؟» مع أنني لم أر في حالها ما ينذر بالنهاية الوشيكة، كما أنني لم أصارحها في الأصل بحقيقة المرض الذي تعانيه، لكنها همست عبارتها تلك كأنها تملي علي رغباتها الأخيرة. صدمت لسماعي ما قالت فأجبت: «لا بأس إن يبست، بإمكانك أن تبقيها هنا» غير أنها أصرت: «ليس بمستطاعي أن أسقيها بعد اليوم، ولا أريد أن يتسرب الموت إلى هذه النبتة المرحة والوافدة من الجنوب، لذا خذها الآن، أرجوك» واغرورقت عيناها بالدموع. لم يعد بوسعي إلا أن حملت الأصيص بين ذراعي.

على الرغم من أنني كنت رجلا، ولكن صدقيني بكيت مثل طفل، ورفضت أن أستقل سيارة أجرة على الرغم من البرد القارس، ولعلها كانت المرة الأولى التي قلت فيها في سري: «لقد سئمت من كوني رجلا!» حاولت أن أتمالك نفسي قليلا، ومشيت إلى المحطة وهناك قررت بعد أن شربت كأسا، أن أستقل القطار. كان الوقت ليلا، وكان رصيف المحطة مقفرا والبرد قارسا. ترتعد أوصالي لشدة البرد فيما ذراعاي تحتضنان الأصيص بقوة فتنغرز أشواك الأناناس في وجنتي... وفكرت بصوت عال حتى خرجت الكلمات من فمي: «في هذا المساء، ليس في هذا العالم سوى نبتة الأناناس وأنا من يفهمان بعضهما البعض» ومغمض العينين، أحسست، على هذا الرصيف المقفر المشرع للرياح، أحدنا يحتضن الآخر لكي يحتمي من البرد. إننا وجدنا هنا لنتقاسم ذلك المقدار من الوحدة. أنا وزوجتي، تواطأنا على التفاهم أكثر من أي زوجين آخرين، لكنها أقرب الآن من الموت وليس مني أو من نبتة الأناناس خاصتي.

«ماتت بعد ذلك بوقت قصير ويبست أيضا نبتة الأناناس. كنت

لا أعرف كيف أعتني بها ولابد أنني أفرطت في سقيها.. فوضعتها جانبا، في ركن منعزل من الحديقة وعندئذ أدركت أمرا لا أقوى على تفسيره. وعندما نعبر عنه بالكلمات يبدو غبيا: وهو أن العالم لا يدور فقط من حولي. وأن مقدار الشقاء الذي يصيبني ليس لي أن أبدل فيه شيئا. لست أنا من يقرر. وعندئذ قلت أن ما تبقى ينبغي أن يصبح شيئا مختلفا وباهرا، لذلك أصبحت امرأة، وها أنذا».

عندما شرعت برواية كل ذلك على مسمعي، حدست بالإجمال، بما تود قوله، ولكن دون أن أدرك مغزاه، وفكرت: «إن هذا ربما هو لذة الحياة...» والآن أدركه جيدا حتى الغثيان. لِمَ ليس لنا سوى هذا الهامش الضيق من الخيار؟ إننا نصر على إعداد الطعام والأكل والنوم حتى لو نشعر بأننا مسحوقون مثل الدودة. كل من نحبهم يموتون الواحد تلو الآخر ومع ذلك ينبغي أن تستمر الحياة.

... هذه الليلة أيضا، الظلمات ملبدة وجائرة. ليل يتأرق فيه واحدنا للنجاة من سبات ثقيل من شأنه أن يفضي به إلى القعر.

اليوم التالي كان مشرقا.

كنت أغسل ثيابي استعدادا للسفر حين علا رنين الهاتف.

الحادية عشرة والنصف؟ نادرا ما يتصل بي أحد في مثل هذه الساعة.

رفعت السماعة حائرة فيمن يكون، فسمعت صوتا جهوريا حادا يقول: «أهذا أنت يا ميكاج؟ لقد مضى وقت طويل».

- «شيكا - شان؟» قلت بصوت متفاجئ، كانت مخابرة من خارج المدينة، وعلى الرغم من ضجيج السيارات المتناهي إلى مسمعي من بعيد، وصلني الصوت واضحا ومعه طلة شيكا - شان التي تستعيدها

ذاكرتي.

شيكا - شان مخنث يدير فريق النادلات في بار أريكو، كان يأتي غالبا إلى منزل آل تاناب لتمضية الليل في الفترة التي أقمت فيها عندهم وبعد وفاة أريكو حلت محلها في إدارة العمل.

قلت «حلت» علما بأن من يراها، وخلافا لما كانت عليه أريكو، يدرك على الفور أنها رجل. غير أن شيكا - شان كان طويل القامة ونحيلا، وله وجه قابل لكل أشكال الماكياج. الفساتين المثيرة تليق بجسمه، ومسلكه ينم عن رقة ورشاقة، تجفله أيما إشارة: ذات يوم، في الميترو، حاول تلميذ أن يرفع طرف تنورته ليهزأ به فراح يبكي بغزارة. يضايقني أن أقول ذلك، ولكن لعل أكثر ما أنحرج منه هو إحساسي عندما نكون سويا بأنني أكثر رجولة منه.

«اسمعي.. إنني الآن على مقربة من المحطة، ألا يمكنك أن توافيني؟ لدي ما أقوله له. هل تغديت؟»

- «لا. ليس بعد»

- «إذًا وافيني فورا إلى لـ «ساراشينا!»

أقفلت الخط بسرعة بعد لفظها لهذه العبارة. أرجأت نشر غسيلي وغادرت الشقة مسرعة.

مشيت بخطى عاجلة في شوارع الشتاء المتألقة تحت شمس الظهيرة وحالما دخلت مطعم السوبا(*) الذي ذكرته شيكا - شان في السوق أمام محطة القطار، لمحتها بملابس الرياضة التي بدت أشبه بالزي

(*) تنويعة من معكرونة الحنطة السوداء الشعيرية والرمادية اللون والتي يمكن أن تؤكل بالحساء، أو مقلية، أو حتى باردة مع صلصلة خفيفة.

(**) حرفيا: «إطريات غرمير»، معكرونة مطبوخة في حساء تضاف إليها قطع من عجينة التمبورا.

الفولكلوري: كانت تشغل نفسها أثناء انتظاري بالتهام طبق من الـ «تانوكي سوبا».(**)

وما أن دنوت من «شيكا - شان» حتى صاحت: «أواه لم أرك منذ دهر، لقد أصبحت امرأة، ولن أجرؤ بعد الآن على الاقتراب منك».

كان التأثر باديا علي والحنين يطغى على الحرج. لم أر في حياتي كلها ابتسامة كتلك الابتسامات العريضة التي ترتسم على وجهها كأنها تقول: «بإمكانك أن تصطحبيني حيثما شئت فلن أسبب لك جرحا!». كانت شيكا - شان ترمقني بنظرات محببة، ضاحكة بالغبطة التي تنبع من القلب. وإذ أحسست بالدماء تكاد تحتقن في وجنتي قلت بصوت عال: «معكرونة شريطية بالدجاج، لو سمحت!» كانت صاحبة المطعم قد هرعت إلى طاولتنا ووضعت عليها كوبا من الماء.

- «ما الذي أردت أن تحدثيني عنه؟»

هكذا تطرقت مباشرة إلى صلب الموضوع وأنا ألتهم طبقي.

في العادة، كلما قالت إنها تريد أن تحدثني عن أمر ما يتضح أنها إنما تريد أن تمزج رأيي ببعض الحماقات التي تعنيها هي، لذا كنت أتوقع شيئا من هذا القبيل، غير أنها أصرت على الكلام بصوت خفيض كأنها تسر لي بأمر بالغ الأهمية: «الأمر يتعلق بـ يوشان(*)!».

فراح قلبي يخفق بقوة.

«مساء أمس جاء إلى البار في ساعة متأخرة وقال لي: «النوم يجافيني!»، وبما أن الأمور ليست على ما يرام بالنسبة له اقترح علي، طلبا لتغيير الأجواء الضاغطة، أن أصحبه في رحلة إلى مكان ما لقضاء بعض الوقت. ولكن إياك أن تفسري الأمور على غير مجملها! أنت

(*) اسم مصغر ليويشي.

تعلمين جيدا أنني عرفته منذ كان طفلا! وليس بيننا إلا المودة، فهو بالنسبة لي مثل ولدي. مثل ولدي...».

- «أعلم جيدا» قلت ضاحكة. فتابعت شيكا - شان كلامها.

«المهم أن الأمر أذهلني. إني غبية بعض الشيء وأغفل أحيانا عما يشعر به الناس. ثم أن يويشي يكره إظهار ضعفه. صحيح أن دمعته سخية لكنه ليس بالولد المدلل. ومع ذلك كان يلح بطلبه هذا، ويردد باستمرار: «أود أن نذهب معا إلى مكان ما...». بدا لي مشوش الذهن لإحساسه العميق بالإحباط. أما أنا فكنت لألبي دعوته بسرور غير أننا نجري بعض أعمال الترميم في البار، بالإضافة إلى ذلك ما زال الجميع مضطربا هناك، لذلك ليس بإمكاني أن أبتعد، وقلت له مرارا إن الأمر مستحيل، عندئذ قال لي بنبرة خائفة: «إذا سأرحل وحدي»، فأعطيته عنوان نزل أعرفه.

- «... فهمت... فهمت...».

- ولكي أمازحه قلت له: «ما عليك إلا أن تدعو ميكاج لتصطحبك!» كانت مجرد دعابة لكنه أجابني بجدية بالغة: «ستغادر إلى إيزو في رحلة عمل. ثم إني بأية حال ما عدت راغبا في إقحامها في كل مشكلاتي العائلية. ليس من اللائق أن أفعل ذلك خصوصا أن أمورها بدأت تسير نحو الأفضل!» فجأة انتابني حدس ما: أليس هذا هو الحب؟ بالتأكيد هو الحب! لذا يا ميكاج سأترك لك عنوان النزل ورقم الهاتف، فالحقي به وطارحيه... غرامه!».

- «شيكا - شان»، مهلا قلت لها: «إني راحلة غدا، هذا صحيح، لكنها رحلة عمل لا أكثر».

شعرت باضطراب.

إني أدرك... إني أدرك جيدا ما يعانيه يويشي وأفهم رغبته في الرحيل، رغبته التي لا تضاهيها رغبة، حتى رغبتي أنا في الابتعاد، إلى حيث لا يكون مرغما على التفكير في أي شيء. يود أن يبتعد عن كل ما يحيط به بما في ذلك أنا، وربما عقد العزم على البقاء بعيدا لوقت طويل، لم أكن مخطئة، كنت أعلم ذلك يقينا.

«العمل، العمل ومن يكترث؟» قالت شيكا - شان بانفعال وهي تميل علي «في مثل هذه الظروف، ما الذي تستطيعه امرأة؟ أمر وحيد. وللمناسبة لا تقولي لي إنك ما زلت عذراء؟ أم أنني مخطئة؟... ألم تفعلا ذلك أنت ويويشي من قبل؟».

- «شيكا - شان، كفي عن هذا!»

وفي الوقت نفسه، ساورني إحساس بأنه ربما كانت الأمور أفضل لو أن جميع الناس مثلها، لأنها صنعت لنا في مخيلتها صورة نبدو فيها سعيدين أكثر بكثير مما نحن عليه في الواقع.

«سأرى ما قد أفعل، قلت لها. لم يبلغني خبر وفاة أريكو إلا أخيرًا» وكما ترين أشعر أنني مضطربة ومشوشة، لذلك فإن ما يعانيه يويشي ليس مستهجنا على الإطلاق! أعتقد أن الظروف غير مواتية لاستعجال الأمور».

فجأة بدا وجه شيكا - شان واجما صارما إذ رفعت رأسها عن قصعة السوبا وقالت:

«... وهذا شعوري أنا أيضا! تلك الليلة لم يكن لدي عمل في البار فلم أشهد مقتل أريكو، لذا مازلت حتى الآن لا أصدق... ولكنني أعرف الرجل الذي تسبب في الحادثة، أذكر وجهه على الأقل. ولو أن أريكو أخبرتني بما يجري خلال وجوده في البار لما حصل ما حصل! أعلم

جيدا أن يو - شان يواجه مشقة بالغة في تقبل الأمر. تخيلي أن فتى رقيقا مثله يقول لي ذات يوم معلقا على نشرة أخبار متلفزة كان يشاهدها: «ليمت القتلة جميعهم! المسكين، قال ذلك بنبرة أرعبتني. لابد أنه يشعر الآن بوحدة فظيعة. فقد كانت أريكو مصرة على تحمل كل الأعباء بمفردها، كبيرها وصغيرها، وإذا بالأمور انقلبت ضدها على نحو مرير... هذا كثير... كثير جدا!».

واغرورقت عيناه بالدموع ولم تتح لي الفرصة أن أقول حتى حرف واحد لأنها أجهشت بالبكاء مباشرة وبصوت عال فالتفت رواد المطعم إلينا ورمقتنا الأعين فضولا واستهجانا. كانت كتفا شيكا - شان تهتزان بقوة فيما تواصل كلامها الذي تقطعه أنفاسها المتهنهة، ودموعها الغزيرة تنكسب قطرة قطرة في حساء السوبا.

«آه يا ميكاج، لو تعلمين كم أشعر بالحزن. كيف لمثل هذا أن يحصل، أمر غير معقول، هذا ليس بعدل! عندما أدرك أنني لن أرى أريشان(*) بعد اليوم أشعر برغبة في الصراخ...».

غادرت المطعم بصحبة شيكا - شان التي لم يتوقف نحيبها وقد أمسكتها من كتفيها اللتين تعلوان كتفي لطول قامتها وسرت بها نحو المحطة.

«هلا تعذريني؟» قالت وهي تمسح دموعها بمنديلها الدانتيلا، وقبل أن تعبر إلى الرصيف دست في يدي ورقة كتب عليها عنوان ورقم هاتف النزل الذي يقيم فيه يويشي.

«تستحق الإعجاب. إنها بالفعل بنت مهنتها! وتعرف جيدا ما العمل حين ينبغي!» ووقفت أراقبها بنظرات إعجاب، وبغصة في القلب، وهي

(*) اسم مصغر لأريكو.

تبتعد بقامتها الهيفاء.

أعرف كل شيء عنها.. خفتها، وغرامياتها العابرة وماضيها ككوكيل فاشل... ولكن شيئا ما في بهاء الدموع التي ذرفتها قد مسني في الأعماق، شيء ما جعلني أدرك أن اللب في قلب الإنسان ألماسة.

تحت سماء شتوية، جليدية الصفاء، أحسست بأنني متعبة من ذاتي أنا أيضا. لاأعلم ماذا أفعل. السماء زرقاء مفرطة في زرقتها، وأخيلة الأشجار العارية ترتفع مثل ظلال صينية في مهب الرياح.

«أمر غير معقول، هذا ليس بعدل!»

في اليوم التالي غادرت كما هو مقرر إلى إيزو.

كنا مجموعة صغيرة - مديرة معهد المطبخ وبعض العاملين في المجلة ومصور - وبدت لي الرفقة مرحة وودية.. بالإضافة إلى أن الجدول الزمني لمهامنا لم يكن ضاغطا.

وما توقعته كان صحيحا. لقد جاء توقيت الرحلة مناسبا لتجاوز الحالة التي كنت أراوح فيها. وما كنت لأحلم بما هو أفضل منها.

أحسست أنني تحررت من أسر الأشهر الستة المنصرمة.

خلال الأشهر الستة تلك، أي خلال الفترة الممتدة بين وفاة جدتي ووفاة أريكو كنا، يويشي وأنا، نحافظ على مظهرنا المرح الباسم، غير أن الأمور كانت تزداد تعقيدا في أعماقنا الحميمة. بدت الأفراح والأحزان أكبر من طاقتنا على الاحتمال في حياتنا اليومية، وبذلنا ما بوسعنا نحن الاثنين، وعلى الرغم من المشقة، لكي نقيم لنا حيزا من الدعة. حيز كانت أريكو المتألقة بكل نيرانها، هي شمسه.

كل هذا، إذ تسرب بدعة إلى قلبي، جعلني مختلفة. هجرتني **الأميرة** الصغيرة المدللة والمكتئبة ورحلت بعيدا، بعيدا جدا، **أكاد الآن لا ألمح**

انعكاس طيفها في المرآة.

جلست إلى نافذة القطار مستغرقة في تأمل المشهد المشمس الوادع، متنشقة مع أنفاسي العميقة تلك المسافة المدوخة التي انحفرت في أعماق ذاتي.

... أنا أيضا كنت متعبة حتى الإنهاك، وكنت أرغب في الابتعاد عن يويشي طلبا للاسترخاء.

مثل هذه الحقيقة تحزنني ومع ذلك لا حقيقة سواها.

ثم، ذاك المساء...

ذهبت إلى غرفة المديرة مرتدية كيمونو من القطن الخفيف وقلت لها:

«سيدتي، إني أتضور جوعا، بإمكاني أن أخرج لتناول بعض الطعام»

صاحت أكبر أعضاء المجلة سنا والتي تشارك المديرة غرفتها: «صحيح، أنت لم تأكلي شيئا يا آنسة ساكوري!».

كانتا تستعدان للنوم وقد اقتعدتا الفوتون بقمصان النوم.

كنت جائعة حقا. فقد قدمت لنا هذا المساء في أطباق البدريات، وهي اختصاص النزل، كل صنوف الخضار التي أكره بسبب رائحتها، وعلى الرغم من أني لا أتذمر، في العادة، لم أستطع أن أبتلع من الطعام أكثر من ثلاث قضمات، ولعل المديرة لاحظت ذلك فأذنت لي بالتغيب.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء، عدت أدراجي عبر الرواق إلى غرفتي كي أبدل ثيابي، ثم غادرت النزل. خشية أن أجد باب المدخل مقفلا لدى عودتي، عمدت تحسبا إلى فتح باب الطوارئ لجهة المبنى الخلفية.

كان تحقيقنا لذلك اليوم مكرسا لمثل ذلك النوع الفظيع من الطعام، على أن نغادر في اليوم التالي قاصدين أماكن أخرى. في أثناء سيري في ضوء القمر، قلت في سري إنه لمن المستحسن حقا أن يحيا المرء على هذا النحو في ترحال دائم، ولو أن لي عائلة تنتظرني لبدا الأمر أكثر شاعرية، ولكن بما أن لا أحد ينتظرني كنت أشعر بوحدة تامة، ولم يكن شعوري هذا مجرد دعابة ومع ذلك، أليست هذه هي الحياة المثلى لمن هو مثلي؟ ففي الليل في أثناء السفر، يبدو الهواء صافيا بشدة صمته، والقلب سمحا رائعا. وبأية حال، قلت في سري، إذا كنت لا أحد، ولست وافدة من جهة أو مكان، لم لا أنصرف إلى مثل هذه الحياة الواضحة؟ لعلها الحياة المثلى ولكن المشكلة تكمن في أنني أدرك جيدا مشاعر يويشي... كم تكون الأمور أيسر منالا لو أنني أستطيع ألا أعود إلى هناك نهائيا، إلى تلك المدينة.

سلكت شارعا رئيسيا يتجاور فيه عدد كبير من النزل.

كتلة الجبال السوداء، الأشد سوادا من الليل، تحرس المدينة. الشوارع تزدحم بالسياح السكارى الذين يرتدون المعاطف المبطنة فوق كيمونوات من القطن الهش، يتبادلون فيما بينهم الضحكات.

دونما سبب شعرت بغبطة تستخفني.

كنت وحيدة، تحت النجوم، في مكان مجهول.

عند مروري تحت كل مصباح، أدوس ظلي الذي يكبر ثم يضمر.

واصلت سيري مجتنبة أبواب البارات الصغيرة الصاخبة التي تخيفني، فوصلت إلى ناحية المحطة. وإذ تمهلت قليلا أمام واجهات محال التذكارات المعتمة لفتتني أنوار مطعم شعبي لم يقفل أبوابه بعد.

استرقت النظر عبر زجاج المدخل المغبش فلم أر في الداخل سوى مبسط على شكل طاولة وزبون وحيد فشعرت ببعض الاطمئنان وفتحت الباب.

كنت أرغب في تناول وجبة متينة، لذا وجدتني أطلب: «طبقا من الكاتسودون(*) من فضلك!».

«سيكون علي أن أتبل شرائح اللحم وقد يستغرق ذلك بعض الوقت، ألديك مانع؟» أجابني صاحب المحل. فأشرت برأسي.. لا. كان ذلك المطعم النظيف الذي تفوح في أرجائه رائحة الخشب الطازجة غارقا في جو من الدعة والهدوء. وبدا لي أنه المكان الذي يقصده المرء، عادة لكي يأكل جيدا. فيما انتظر لمحت هاتفا وردي اللون على مقربة مني.

مددت يدي ورفعت السماعة دون تردد ورحت أدير القرص بحسب الأرقام التي دونتها شيكا - شان على الورقة التي دستها في يدي والتي قالت إنها أرقام النزل الذي يقيم فيه يويشي.

وحين طلبت مني عاملة المقسم في النزل أن أنتظر على السماعة راودتني خاطرة غريبة.

فمنذ أن أطلعني يويشي على خبر وفاة أريكو وأنا أشعر في حضوره بأنني مهملة، متروكة، مثل شعوري الآن وأنا أنتظر على الهاتف. فمنذ ذلك الحين، وحتى لو كان ماثلا أمام عيني، كنت أشعر أنه في مكان آخر على الطرف الآخر من الخط. إنه مقيم في عالم أشد زرقة من العالم الذي أحيا فيه الآن، عالم يذكرني بأعماق البحار.

(*) شرائح من لحم الخنزير المطبوخ فوق قصعة من الأرز والبيض المخفوق والبصل المتبل بصلصة.

«آلو؟» تناهى إلى سمعي صوت يويشي.

«يويشي؟» سألت بشيء من الارتياح.

- «أهذا أنت يا ميكاج؟ ولكن كيف عرفت مكاني؟ آه، إني أعلم، أعلم: إنها شيكا - شان...».

صوته الهادئ، البعيد قليلا، يعبر مسافات الليل عبر خطوط الهاتف. كنت أصغي إليه بحنين، مغمضة العينين، وكان صداه أشبه بصدى تكسر الأمواج الحزين.

«ما الشيء المميز الذي عثرت عليه هناك حيث أنت؟» سألته.

- «أحد فروع DENNY'S(*) لا، لا.. إنها مجرد دعابة. هناك معبد شنتو عند قمة الجبل، وأعتقد أن وجوده هو الذي يجذب السياح في الوادي. هناك عدد كبير من النزل التي تقدم وجبة خاصة بالمنطقة تدعى «طبخة الرهبان» وهي مكونة من الـ «توفو».. لقد تذوقتها أنا أيضا هذا المساء.

- «ما طبيعة هذا المطبخ؟ يبدو فريدا من نوعه!»

- «نعم. من المؤكد أنه يهمك! الحقيقة أن كل شيء فيه يحضر انطلاقا من الـ «توفو». إنه لذيذ، لكن المرء يمل طعمه في آخر الأمر، إنه المكون الرئيسي لكل الأطباق في كل أشكالها، نجده مسلوقا أو مشويا أو مقليا أو متبلا بقشر الليمون الحامض وحبوب السمسم... ونراه حتى في الحساء. كنت أرغب في وجبة مغذية وانتظرت حتى نهاية الوجبة آملا في الحصول على قصعة أرز! ولكن حتى هذا قدم لي على شكل حساء، وحسبت لوهلة أنني عجوز أدرد».

- «يا للمصادفة العجيبة، أنا أيضا أتضور جوعا!».

- «أيعقل هذا؟ ألست في نزل مختص بتقديم الأطعمة الشهية؟»

(*) سلسلة مطاعم شهيرة غالبا ما تكون فروعها منتشرة على طول الطرقات السريعة.

- «لم تقدم سوى الأصناف التي أمقتها!»

- على الرغم من أن هذا الاحتمال ضعيف إحصائيا، يا لسوء طالعك.

- لابأس. سأعوض غدا ما فاتني!

- إنك محظوظة! أما أنا فأعرف جيدا ماذا ينتظرني كفطور... حلة من الـ «توفو»!.

- واحدة من تلك التي تُسخن على سخان نقال... من المؤكد أنها كذلك.

- «بما أن شيكا - شان تعشق الـ «توفو» فقد كانت سعادتها لا توصف حين أشارت علي بهذا النزل والحقيقة أنه مكان رائع. في غرفتي نافذة هائلة تطل على ما يشبه مسقط المياه. غير أني مازلت في طور نموي العضوي وينبغي أن أكثر من الأطعمة الدهنية والغنية بالسعرات الحرارية... إنه أمر غريب حقا. نحن معا تحت سماء واحدة نشعر بالجوع هذا المساء!» قال يويشي ضاحكا.

أعلم أن هذا محض غباء غير أني في تلك اللحظة شعرت بأنني عاجزة عن التبجح أمامه بطبق الكاتسودون الذي سألتهمه بعد حين. لا أدري لماذا ولكن بدا لي الأمر أشبه بخيانة فاضحة، وأردت أن أموت جوعا معه، في مخيلتي على الأقل.

وفي تلك اللحظة تملكني حدس غريب كأنه رعشة سرت في جسمي. أحسست به كأنه قابل للمس.

كانت مشاعرنا المتقاربة حتى التماثل، تقودنا الهوينا نحو منعطف حاسم في كنف الظلمات المجاورة للموت. ولكن ما أن يصبح هذا المنعطف وراءنا حتى تسلك مشاعر كل منا طريقا مختلفة، وهذه المرة لن يسعنا إلا أن نبقى أصدقاء، مجرد أصدقاء إلى الأبد.

لا مجال للشك، أعلم ذلك يقينا.

ولكن ما أجهله هو كيف التصرف حيال ما أعرفه جيدا. ولكن على الرغم من كل شيء ربما من الأفضل أن تكون الأمور على ما هي عليه.

«متى ستعود؟» سألت.

أجاب يويشي إثر هنيهات من الصمت: «قريبا».

«يا له من كاذب لا يجيد الكذب» قلت في سري، فأنا أعلم جيدا أنه سيواصل هروبه حتى آخر قرش يملكه. وأنه في آخر المطاف لن تعود لديه الجرأة على الاتصال بي بسبب الحرج الذي قد يصيبه كما أصابه حين ثابر على تأجيل اللحظة التي سيبلغني فيها بوفاة أريكو، إنه أمر من صلب طباعه.

«إذًا إلى اللقاء قريبا»، قلت له.

- «أجل، إلى اللقاء قريبا»

لاشك أنه هو نفسه، لا يعرف سبب رغبته في الهروب.

«خصوصا إياك وقطع شرايين معصميك!» قلت له ضاحكة.

- «ماذا؟»

ضحك هو أيضا وأقفل الخط.

فجأة تملكني قنوط هائل.. فبعد أن أرخيت السماعة من يدي مكثت لبعض الوقت محدقة في باب المطعم الزجاجي، مصغية بشرود إلى جلبة الخارج التي يبددها عزيف الرياح. كنت أسمع أصوات العابرين إذ تتقاطع سبلهم بمحض المصادفة وهم يتبادلون الشكوى من شدة البرد. فاليوم أيضا جاء الليل وسوف يمضي الليل في حياة كل البشر. وشعرت بأنني هذه المرة، سألمس حقا قعر الوحدة حيث لا يستطيع أحد أن يوافيني.

لا أحد يرضخ للظروف أو للقوى الخارجية.. فمصدر الهزيمة هو الداخل، هو ذات النفس، قلت في سري، إحساس بالعجز: كنت أحضر نهاية شيء لا أريد له نهاية، ومع ذلك لم أتشبث به ولم أشعر بالحزن لزواله، لن يكن أمامي سوى الضباب والعتمة.

كنت أود لو يترك لي متسع من الوقت للتفكير في مكان مضاء زاخر بالنور والأزهار، ولكن من الواضح أن الأوان قد فات.

ثم حظيت أخيرا، بطبق الكاتسودون.

تمالكت نفسي وأمسكت بالعودين بين أصابع يدي.

«بطن خاوية...» قلت في سري. بدا لي الطبق شهيا للنظر، أما مذاقه فكان أشهى، كان فاخرا ولذيذا.

«إنه لذيذ جدا» قلت بعفوية.

- «أليس كذلك؟». أجابني صاحب المطعم بشيء من التفاخر.

صحيح أنني كنت أتضور جوعا، ولكن الطبخ هو مهنتي وطبق الكاتسودون هذا ينم عن فن راق، لا بل أكاد أقول إنه اكتشاف! نوعية اللحم، ومذاق الصلصلة ودرجة طهو البيض والبصل والأرز، كل شيء على أفضل ما يكون! عندئذ تذكرت أن المديرة قد أتت على ذكر هذا المطعم وأبدت رغبتها في أن يخصص ببضع صفحات فقلت في سري إنني محظوظة من دون شك. آه! فقط لو أن يويشي هنا وما أن خطرت ببالي هذه العبارة قلت بعفوية: «أتعد أطباقا للمنازل؟ أبإمكانك أن تعد لي طبقا آخر؟».

عندما غادرت المطعم متخمة، كان الليل على مشارف انتصافه ووجدتني وحيدة في الشارع، مرتبكة وفي يدي علبة مليئة بالكاتسودون الساخن.

«ولكن ما الذي دهاني فجأة؟» وفيما أقف حائرة أسأل نفسي ما عساني أفعل، توقفت سيارة أجرة أمامي، وما أن رأيت الإشارة الحمراء مضاءة أدركت أن السيارة شاغرة فارتجلت قرارا على عجل.

سألت السائق: «أبإمكانك أن تنقلني إلى مدينة إ...؟

- «إلى إ...؟ قال السائق بنبرة من لا يصدق أذنيه، والتفت نحوي. لا مانع لدي لكنها بعيدة والتكلفة ستكون باهظة!»

- «أجل أعلم، لكن الأمر عاجل» وجلست في المقعد الخلفي واتخذت هيئة جان دارك أمام ولي العهد. فبهذه الطريقة يبدو كلامي مقنعا. «ما أن نصل إلى هناك سأدفع لك ثمن الطريق». ولكن عليك أن تنتظرني عشرين دقيقة هناك لكي تعيدني معك إلى هنا.

- «يبدو لي أنها مغامرة غرامية»، قال ضاحكا.

- «يمكن قول ذلك»، قلت متعمدة أن أضحك بدوري.

«لننطلق إذا!»

انطلق التاكسي يقلني إلى مدينة إ...، وفي يدي علبة الكاتسودون الساخن.

كان يومي متعبا فكبوت في البداية، ثم استيقظت مجفلة لأجد أن السيارة تسير بي مسرعة في طريق مقفرة.

خدر النعاس ما زال ساريا في أطرافي، غير أن ذهني بقي صاحيا متيقظا فاستقمت في جلستي، في عتمة السيارة لكي أسرح نظري عبر النافذة.

«لم تستغرق الرحلة وقتا طويلا، كدنا نصل» قال السائق.

هززت برأسي ونظرت إلى السماء.

كان القمر صافيا بعيدا يمخر سماء الليل مكتسحا نجومها. **قمر**

بدر، يختفي خلف الغيوم حينا ثم يظهر بلا مبالاة. كان الجو دافئا داخل السيارة وعم الضباب على الزجاج. أخيلة الأشجار والحقول والهضاب تمر بنا كظلال صينية، شاحنات تتجاوزنا بهديرها ريثما يطبق الصمت مجددا على الإسفلت اللامع تحت ضوء القمر.

... بعد وقت قليل وصلنا إلى إ...

في الشوارع الغارقة في الظلام كنا نمر هنا وهناك، بين أسطح البيوت، ببوابات معابد الشنتو الصغيرة(*)، فيما السيارة هبط مسرعة درب المنحدر، وخطوط العربات السلكية ترتسم في فضاء العتمة كمسالك فضائية ثخينة.

«فيما مضى كان محرما على الرهبان تناول اللحم فعمدوا إذا إلى ابتكار أطعمة مختلفة مكونة من التوفو. وراح أصحاب النزل في الناحية يتفننون في ابتكار المآكل بالصلصات على هذا النحو وذاع صيتهم في هذا المجال. حاولي في المرة المقبلة أن تكون زيارتك خلال النهار لكي تتذوقي ما اشتهرت به هذه البلاد»، قال السائق.

- «لقد أصبت، الحقيقة أنني سمعت ذلك من قبل»

كان علي أن أبقي عيني نصف مغمضتين لكي أتمكن من التعرف إلى معالم المدينة تحت أنوار المصابيح العابرة بانتظام في دروب العتمة.

«توقف عند زاوية الشارع المقبل. وانتظرني هنيهات ريثما أعود»

- «حسنا، حسنا»، قال السائق وقد أوقف سيارته على نحو مباغت.

كان البرد قارسا حين ترجلت من السيارة، وأحسست بيباس الصقيع في يدي وخدي. ارتديت قفازي، وسلكت تحت ضوء القمر دربا منحدرا

(*) بوابات الـ torii في النص الأصلي، أي بوابات الخشب المنتصبة على مداخل معابد الشنتو.

حاملة علبة الكاتسودون على كتفي.

وإذا بي أواجه ما كنت أخشاه: لم يكن النزل الذي يقيم فيه يويشي واحدا من تلك المباني القديمة التي يستطيع المرء أن يدخلها بسهولة في أي وقت من الليل.

فالباب الزجاجي، عند المدخل الأمامي، يقفل أوتوماتيكيا، وكذلك الأمر بالنسبة لمخرج الطوارئ عند السلالم الخارجية.

وقفت حائرة لبعض الوقت ثم عدت أدراجي إلى الشارع لكي أتصل هاتفيا بالنزل، لكن لم أحظ بجواب وهذا أمر غير مستهجن نظرا لهذه الساعة المتأخرة من الليل.

ألهذا جئت؟ قلت في سري حائرة أمام المبنى الغارق في الظلام.

مع ذلك لم أستسلم، فسرت حول المبنى وتسللت بمشقة عبر زقاق يحاذي مخرج الطوارئ وصولا إلى الحديقة. وتذكرت ما قاله لي يويشي بأن هذه الحديقة التي تطل على شلال هي التي صنعت شهرة النزل، فنوافذ الغرف جميعها تطل عليها.. غير أنها نوافذ مطفأة.

غالبتني تنهيدة من الأعماق وأنا أجيل نظري في أرجاء الحديقة. دربزين ملقى على الصخور وشلال تساقطت مياهه الشحيحة على الحجارة المكسوة بالطحالب. قطرات صقيلة تتناثر مطرزة وشاح العتمة بحبيبات بياض. كان الشلال مضاء بأنوار خضراء مبهرة فتنعكس بألقها الزائف على أشجار الحديقة. ذكرني المشهد بـ «تطواف الغابة» في «دزني لاند». «إنها خضرة زائفة» قلت في سري وألتفت لأعاين مجددا صف النوافذ المعتمة.

فجأة، لا أدري لماذا، جاءني الحدس اليقين.

إن الغرفة التي تقع عند زاوية المبنى، قبالتي، والتي تنعكس على

زجاجها لمعة الخضرة الزائفة، هي غرفة يويشي!

وللتو راودني شعور بأني قد ألقي نظرة على ما بداخلها، وشرعت دونما تفكير في تسلق الحجارة الضخمة المكدسة في الحديقة.

كانت حافة السقف البارزة للزينة عند طرف الواجهة بين الطابق الأرضي والطابق الأول، قريبة كأنها في متناول يدي وحسبت أنني قد أبلغها لمجرد أن أقف على رؤوس أصابع قدمي. تلمست بطرف قدمي الحجارة المكدسة، وتسلقت اثنين أو ثلاثة منها لأصبح أقرب إلى الحافة. ثم مددت ذراعي نحو الميزاب للتثبت من قدرتي على بلوغه ونجحت ببعض المشقة في لمسه. قفزت لأتشبث به بيد، فيما اليد الأخرى تستند بكل ما أوتيت من قوة إلى حافة السطح، وإذا بالحائط يلتصق بأنفي بسرعة مذهلة، فأحسست بأن قواي تنهار فجأة وما عدت أقوى على الحراك.

مكثت متشبثة بقرميد السطح، ساقاي متدليتان في الفراغ عاجزة عن التقدم أو التراجع، لا أدري ماذا أفعل. ذراعي مشلولتان من شدة البرد، ولكي يزداد ما أنا فيه سوءاً انزلقت حمالة حقيبة ظهري عن أحد كتفي.

«بئس الحكاية!» قلت في سري. «ها أنذا، بفضل عنادي، معلقة بين الأرض والسماء، أكاد أجمد برداً! فكيف السبيل إلى الخلاص؟».

نظرت إلى أسفل فإذا بالأرض التي كنت أقف عليها منذ قليل، غائمة بعيدة. مياه الشلال تتساقط بقرقعة دوية. ما من خيار آخر: استجمعت قواي في ساعدي طلبا للخلاص. فلكي أرفع جسمي، ولو جزئيا، إلى السطح كان علي أن أترجح قليل بضربة محسوبة من طرف قدمي على الجدار.

سمعت حفيفا، واخترق ساعدي الأيمن وجع كأنه غرزة نصل حاد. غير أني واصلت الزحف حتى ألفيتني ممددة على السطح الإسمنتي وقد غرقت قدامي في بركة ماء قذر.. لعلها مياه المطر.

تنفست الصعداء، ودون أن أقف على قدمي رحت أتفحص ساعدي، وحالما لمحت الاحمرار الذي أحاط بالخدش الذي أصابه أحسست بدوار.

تلك حال الدنيا.

هذا ما قلته في سري بعد أن تخففت من حقيبة الظهر، مستلقية في مكاني أراقب الغيوم والقمر الساطع فوق سطح النزل (كيف أمكنني أن أفكر في أمر كهذا في مثل حالتي تلك؟ الأرجح أني فعلت بدافع اليأس وحبذا لو كان ذلك بدافع فلسفتي العملية).

يظن الناس أن السبل الممكنة لا تحصى، وأن المرء يختار منها بحسب ما يشاء، أو ربما الأحرى أن أقول إن الناس يحلمون باللحظة التي يختارون فيها، أنا أيضا لطالما آمنت بذلك، غير أني الآن أدرك حقيقة الأمر، لدرجة أنني أستطيع أن أعبر عما أدركته بكلمات: الدرب دائما مرسوم، ولا أقصد بذلك أي معنى قدري، فالهواء الذي نتنشقه كل لحظة، والنظرات وتكرار الأيام نفسها، هي التي ترسم الدرب تلقائيا. ويحدث أن يجد البعض نفسه ممددا، بقوة الحتم، بقرب علبة كاتسودون وسط بركة مياه على سطح ما في عز الشتاء، مفتونا بالسماء الكالحة في مكان مجهول.

... أواه، يا لروعة القمر!

نهضت وطرقت زجاج نافذة يويشي.

خيل إلي أنني أنتظر الجواب منذ دهر. وعندما أحسست بصقيع

الرياح يرمد قدمي المبتلتين أضيء النور فجأة وطالعني وجه يويشي فزعا من مؤخرة الغرفة.

وإذ رآني وراء النافذة على السطح جحظت عيناه عجبا ولمحت شفتيه تتمتمان: «ميكاج؟» طرقت الزجاج مجددا وهززت برأسي.. أن ما تراه عيناه هو حقا أنا. هرع ليفتح النافذة وأمسك بيدي التي جمدها الصقيع وجذبني إلى الداخل.

خطفت بصري إضاءة الغرفة وأشعرني الدفء بأنني ولجت عالما آخر، وأن جسمي وقلبي قد اجتمعا أخيرا بعد فراق طويل.

«لقد أحضرت لك بعض الكاتسودون»، بادرت قائلة، «أقصد أنني وجدته لذيذا جدا، وأحسست بالذنب لأنني أكلت منه وحدي!».

وأخرجت العلبة من حقيبتي.

كان ضوء الفلوريسون ينير الأرجاء بوهج مائل إلى الزرقة ويتناهى، كان من بعيد، صوت التلفزيون الخفيض، أما الفوتون الذي كان مستلقيا عليه لهنيهات خلت، فمازال يحفظ إثر رقدته.

«في وقت مضى، جمعنا موقف مشابه لما نحن فيه الآن، قال يويشي.. تحادثنا في حلم. أتعتقدين أننا ما زلنا في حلم؟»

- «أتود أن ننشد أغنية؟ أن ننشدها سويا؟»

وابتسمت، لقد عثرت على يويشي الذي أعرفه، وبدا الواقع على الفور نائيا مبتعدا عني، فالمدة التي قضيناها معا، حياتنا معا في بيت واحد بدت في عيني حلما بعيدا. ففي هذه اللحظة، لم يكن قلبه من هذا العالم، وأخافتني البرودة في عينيه.

«يويشي، هلا أعددت لي كوبا من الشاي؟ يجب أن أغادر بعد قليل!»

وتابعت في سري: «سواء كان حلما أم لم يكن...».

«بالتأكيد!» أجاب قائلا، ثم أحضر ترمسا وإبريق شاي وسكب لي شايا ساخنا احتسيته وأنا أمسك بالكوب بين راحتي وشعرت باسترخاء، كأنه أعاد إلي الحياة.

وسرعان ما عاودني الإحساس بثقل الجو السائد في غرفة يويشي وقلت في سري، ربما كانت حقيقة الأمر هي أنني الآن أحيا في أحد كوابيس يويشي وأحسست بأني لو مكثت طويلا في ذلك المكان فسأصبح جزءا من حلمه السيئ وأنني آخر الأمر سأذوب في العتمة كإحساس غامض، كقدر...

قلت له: «ما عدت راغبا في العودة، أليس كذلك يا يويشي؟ تود لو تمحو ماضيك، حياتك الغريبة، وتبدأ من الصفر. لا تكذب! أدرك ذلك جيدا!» كانت كلماتي تعبر عن أبعد ما في اليأس ومع ذلك بدوت غاية في الصفاء والهدوء، «ولكن المهم الآن هو الكاتسودون! هيا.. كل، بسرعة!».

كان الصمت الأزرق يطبق على صدري ويشعرني برغبة في البكاء. أمسك يويشي بعلبة الكاتسودون مغضيا حاني الرأس. كأن شيئا ما في هذا الجو الذي ينخر الحياة كدودة، يدفعنا إلى ما يلي، إلى أمام غير مرتقب.

«ولكن ماذا أصاب ذراعك يا ميكاج؟ سألني يويشي حالما لمح الخدش الذي أصابني.

- «لا داعي للقلق! كل الآن قبل أن يبرد الطعام!»، قلت مبتسمة.

لم يبد مطمئنا، لكنه نزع غطاء العلبة: «يبدو شهيا!» قال وراح يلتهم الكاتسودون الذي عني صاحب المطعم بإعداده.

كانت أنظر إليه وشعرت فجأة بخفة.

وأحسست بأنني قد فعلت كل ما بوسعي.

... وبدأت أفهم. إنه الزمن البلوري ، المتوقد بأويقات السعادة المنبثقة، والذي استيقظ فجأة من عمق سبات الذاكرة، إنه الزمن الذي يدفعنا إلى الأمام، مثل نسيم البحر يهب حاملا إلينا ضرع تلك الأيام المنصرمة التي أمضيناها معا، فتبعث وتتنفس في قلبي.

ذكريات أخرى من زمان الحياة العائلية.

ذاك المساء الذي أمضيناه متشاغلين بألعاب الفيديو بانتظار عودة أريكو ثم ذهابنا والنعاس يثقل أجفاننا، لنتناول الأوكونومي ياكي(*)، كتاب الرسوم المصورة المضحكة الذي أعطاني إياه يويشي عندما كان العمل يثقل من كاهلي. حين قرأته ضحكت أريكو حتى انهمرت دموعها. رائحة عجة البيض ذات صبيحة أحد مشرق. ملمس الغطاء الخفيف الذي يبسطونه فوقي عندما أغفو مستلقية على الأرض. وإذ أفتح عيني قليلا ألمح ذيل تنورة أريكو وساقيها النحيلتين. وهي أيضا متعتعة من السكر يقلّها يويشي إلى المنزل بالسيارة، ثم نتعاون على حملها حتى السرير... ويوم عيد الصيف وإحساسي بملمس الحزام الذي شدته بقوة فوق الكيمونو القطني الخفيف الذي ارتديته وألوان الحباحب الحمر التي تحوم برقصتها المجنونة في سماء ذلك المساء.

فالذكريات، الذكريات الجميلة تحيا دوما ببريقها نفسه، ومع مرور الزمن تحيا برقة لا تخلو من الشجن.

كم من النهارات ومن الأمسيات التي جلسنا فيها إلى مائدة واحدة.

(*) صنف من الطلميات التي تشوى على صفيح محمي بعد أن تمزج، بحسب الراغب، بكل أنواع المكونات، خصوصا الجمبري والحبار والخضار.

وذات يوم قال يويشي: «كيف للطعام أن يكون لذيذا على الدوام حين أتناوله معك...».

فقلت ضاحكة: «ربما كان السبب أنك عندها تشبع غرائزك الغذائية والجنسية في وقت معا!».

- لا، لا، ليس الأمر كما تصفينه! أجاب ضاحكا لابد أن السبب هو في اجتماعنا كعائلة!».

أريكو ما عادت هنا، غير أن بهجة الماضي قد عادت لتسود لقاءاتنا أنا ويويشي. كان يلتهم الكاتسودون وكنت أحتسي الشاي، فما عادت الظلمات مكتنفة بالموت وكان ذلك كافيا بالنسبة لي.

«حسنا، سوف أعود الآن من حيث أتيت!»

ونهضت.

«تعودين؟» قال يويشي مستهجنا. «إلى أين؟ من أين جئت؟»

- «اسمع، أجبت بلهجة ساخرة، إنها أمسية من صميم الواقع!» وتابعت رغما عني «لقد أتيت من إيزو، أوقفت أول سيارة أجرة وأتيت. أو تعلم يا يويشي، لا أريد أن أفقدك، إلى اليوم لم يتح لنا إلا أن نحيا في عالم كئيب، لكنه، في الوقت نفسه، مغر برخاوته. الموت عبء ثقيل، وما كان ينبغي أن نتعرف إليه في سن مبكرة، ولكن لم يكن لدينا الخيار... في الأيام المقبلة سوف تواجه في حياتك أمورا مؤلمة، ومربكة، وربما مقززة، ولكن إن كنت تشاء أود أن نسير معا نحو شيء ما... أشد قسوة ربما لكنه أكثر حياة! لا داعي أن تشغل بالك بهذا الآن، ولكن حين تستعيد قواك... ولكن أرجوك، لا تختف على هذا النحو!».

توقف يويشي عن تناول طعامه وحدق بعيني، ثم قال: «أعتقد أنني

لن أتذوق في حياتي كاتسودون لذيذا كهذا... لقد كانت وليمة بالفعل!».

- «أرأيت!»، قلت ضاحكة.

«أعترف أنني، بالإجمال، لم أكن بارعا، في المرة المقبلة سأحاول أن أكون أكثر رجولة، أن أكون أقوى، وسوف ترين!»

أجاب يويشي وقد غلبه الضحك بدوره.

«كأن تمزق دليل الهاتف أمام عيني، على سبيل المثال؟»

- «أجل، أجل، أو أن أحمل دراجة هوائية وأرمي بها بعيدا!»

- «أو أن تدفع شاحنة وتصدمها بحائط؟»

- «لا، فمثل هذا من سلوك الأفظاظ!»

كان وجهه الضاحك مشرقا، فأحسست بأنني ربما حركت فيه شيئا ما، ولو قيد أنملة.

«حسنا، سأغادر وإلا غادر التاكسي من دوني» قلت وقد خطوت باتجاه الباب. ناداني يويشي: «يا ميكاج!».

- «ماذا؟»

وإذ ألتفت نحوه قال: «اعتني بنفسك جيدا».

لوحت بيدي مبتسمة وغادرت هذه المرة من بوابة المدخل التي فتحتها وهرعت إلى سيارة الأجرة.

فور وصولي إلى الفندق أويت إلى فراشي وتلحفت جيدا بعد أن أشعلت جهاز التدفئة، وغرقت في سبات عميق.

... استيقظت مجفلة على أصوات العاملين في الفندق وقرقعة القباقيب الثقيلة على أرضية الرواق، وإذا بالطقس قد تبدل كليا.

فمن الجهة الأخرى للواجهة الزجاجية العريضة رأيت السماء ملبدة بغيوم داكنة كثيفة، وقد هبت رياح عاصفة تطايرت معها ندف الثلج

كأسراب تائهة.

نهضت والنعاس ما زال يغالبني، لأضيء اللمبة وبي إحساس بأن ما جرى خلال الليلة المنصرمة لم يكن إلا حلما. في الخارج تبدو سفوح الجبال مكسوة بوابل من الثلوج المحمومة، الأشجار تئن ملتوية الجذوع. أما غرفتي الدافئة فبدت، وسط التجهم، بيضاء مشرقة.

عدت إلى فراشي وتلحفت جيدا، ومكثت فيه وقتا طويلا مستغرقة في تأمل المشهد المكسو بالثلج، وكانت نيران دفينة تستعر في وجنتي.

أريكو ما عادت هنا.

أمام هذا المشهد شعرت بأنني هذه المرة، أيقنت حقيقة ماثلة: فمهما كان المستقبل الذي ينتظرنا، أنا وييويشي، ومهما كانت الحياة مديدة وجميلة، فالحقيقة أنني لن أرى أريكو بعد ذلك، إلى الأبد.

عابرون يسيرون بخطى حذرة عند ضفتي النهر، فيما الثلج يغطي سقوف السيارات بطبقة رقيقة بيضاء، والأشجار ترنح رؤوسها ناثرة أوراقها اليابسة على هدي الرياح، كان إطار النافذة المفضض يلتمع ببروق باردة.

بعد حين سمعت خلف الباب صوت المديرة جذلا مجلجلا، وقد جاءت لتوقظني.

«آنسة ساكوراي هل استيقظت؟ لقد هطل الثلج... لقد هطل الثلج!»

- «إني قادمة!» قلت لها وقد نهضت من فراشي. كان علي أن أرتدي ملابسي، لنباشر نهارا جديدا... ومرة أخرى انطلاق جديد وكل يوم كذلك.

في اليوم الأخير، وإثر تحقيق أجريناه حول المطبخ الفرنسي الذي اشتهر به فندق ساحر في شيمودا أردنا أن نختتم رحلتنا بمأدبة عشاء فاخرة.

كان أفراد الفريق الآخرون من هواة النوم باكرا، أما بالنسبة لي أنا، مدمنة الليل، فلا يعقل أن تمضي الليلة بهذه السرعة. بينما دخل الجميع إلى غرفتهم استعدادا للنوم، خرجت أتنزه وحدي على الشاطئ المحاذي للفندق.

وعلى الرغم من المعطف وطبقات الجوارب التي كنت أرتديها، إلا أنني أردت أن أصرخ من شدة البرد. ابتعت علبة من القهوة من الموزع الآلي ووضعتها في جيبي. كانت تبعث فيَّ الدفء حينما كنت أمشي.

وقفت على الحاجز: كان الشاطيء غارقا في ظلام مائل إلى البياض، وكان البحر أسود كالحبر توشح بشريط متلألئ.

كان الريح الثلجي يهب كالعاصفة، وفي هذه الليلة الباردة التي تجعل العقل بليدا، نزلت من السلم المظلم المؤدي إلى الشاطئ. كان التراب المتجلد تقريبا يحدث صريرا تحت قدمي. أمضيت وقتا طويلا بالمشي على الشاطئ وأنا أشرب قهوتي الساخنة.

كنت أنظر إلى البحر اللامنتهي الذي يغلفه الظلام.

كتل هائلة من الصخور الخشنة تحدث صدى حينما يرتطم بها الموج. فأخذتني كآبة غريبة مشوبة بالعذوبة.

من المؤكد أني سأواجه في حياتي الكثير من السعادة والحزن... حتى ومن دون يويشي.

هذا ما كنت أفكر فيه حقا.

من بعيد كان نور المنارة يدور حول محوره، يدور متوجها إلي، ثم يبتعد من جديد، راسما طريقا مضيئا على الأمواج.

هززت رأسي، ورجعت إلى غرفتي بالفندق وأنفي يسيل.

بينما كان الماء يسخن في الغلاية الكهربائية الصغيرة، ذهبت كي آخذ

حماما دافئا. رن جرس الهاتف بينما كنت جالسة عارية على السرير. رفعت السماعة فإذا بموظف الاستقبال.

«هناك مكالمة هاتفية لك، ابق على الخط لو سمحت»

كنت أنظر إلى حديقة الفندق من الأعلى، حيث المرج الداكن والبوابة البيضاء. بعيدا هناك الشاطيء شبه المتجمد حيث كنت منذ قليل، البحر وأمواجه السوداء. صوت هدير الأمواج يصلني.

«ألو!» انتبهت وإذا بصوت يويشي في أذني.

«أخيرا، وجدتك! لقد تعبت حقا!

- «من أين تخاطبني؟»

بدأت أضحك. كنت أشعر بالارتياح داخل قلبي.

أجاب: «من طوكيو».

كانت إجابة معبرة.

«أتعرف، اليوم هو اليوم الأخير، سأرجع غدا». قلت.

- «هل أكلت الكثير من المأكولات الطيبة؟»

- «نعم أكلت الساشيمي(*) والروبيان ولحم الرت... واليوم كان دور الطبخ الفرنسي وقد زاد وزني قليلا. بالمناسبة، لقد أرسلت إلى بيتي بالبريد السريع طردا مليئا باللحم المتبل بفجل الخيل ورقائق الإنقليس وشاي. إذا أردت، يمكنك أخذه!»

- سألني: «لماذا لم ترسلي الساشيمي والروبيان»

- «لأن هذه الأشياء لا تبعث بالبريد» رددت ضاحكة.

- «حسنا سآتي إلى محطة القطار غداً لآخذك. بإمكانك إحضارهم معك. متى تصلين؟» قال يويشي بغبطة.

(*) شرائح رقيقة من السمك النيئ تؤكل مع صلصة الصويا وفُجل الخيل.

خيالات ضوء القمر

حيثما ذهب، كان هيتوشي لا يفترق عن جرس صغير علقه بمحفظته.

كان هدية لا شأن لها، قدَّمتها له حين كنا لا نزال متحابين، ولم أدرِ حينها أنها لن تفارقه حتى النهاية.

كنا قد تعارفنا في المدرسة الثانوية، في السنة الثانية، خلال رحلة مدرسية أسندت فيها لكلينا مهمة الإشراف على صفِّه. وبما أنه كانت لكل صف وجهته المختلفة، لم نمض سويا سوى المدة التي استغرقتها رحلة الذهاب في الشينكانسن(*). على رصيف المحطة، رحنا نلهو بتقليد لحظات الوداع المؤثرة والمصافحة باليد. عندها فطنت فجأة إلى أني أحمل في جيب مريولي جرسا صغيرا كان قد أفلت من طوق هرِّي، فأعطيته إياه كتذكار. «ما هذا؟» سألني ضاحكا، لكنه، مع ذلك، لف منديله عليه بعناية بالغة، وقد أذهلني كل الذهول تصرفه ذاك غير المتوقع بالمرة من فتى في مثل سنّه.

هكذا يبدأ الحب دائما.

ألأن تلك الهدية كانت مني أنا؟ أم لأن هيتوشي على قدر من التهذيب يمنعه من التعامل بخفة مع ما يقدم إليه؟ على أية حال كانت بادرته العفوية سببا لجعله محببا لدي.

لقد أوجد ذاك الجرس الصغير آصرة فيما بيننا. ثم، طوال تلك الرحلة التي لم نكن فيها سويا، كان حاضرا بالنسبة لأحدنا كما للآخر. كلما تناهى رنينه إلى أذنه، راح يفكر فيَّ

(*) القطار السريع.

وفي الأيام التي صرفناها سويا في الإعداد لتلك الرحلة، أما أنا فكنت لا أكف عن التفكير في ذلك الجرس الصغير الذي يرن تحت سماء نائية، وفي الصبي الذي يسافر بصحبته. ولدى عودتنا بدأ حب كبير.

خلال أربع سنوات تقريبا، ليل نهار، عايش الجرس الصغير جميع الأحداث إلى جانبنا، قبلتنا الأولى، شجاراتنا، الصحو والمطر والثلج، ليلتنا الأولى، ضحكاتنا ودموعنا، موسيقانا وبرامج التلفزيون المفضلة لدينا. لقد قاسمنا كل أوقاتنا. فما أن يخرج هيتوشي محفظته التي يضع فيها نقوده أيضا، كان يسمع رنينه الخافت العذب. نغم رائع، حاضر دائما في آذاننا.

إن قولي إني كنت أتوجس أمرا ما، قد يبدو، بعد فوات الأوان، ميلا عاطفيا متكلفا يصدر عن فتاة في مقتبل العمر.

ولكن...

لطالما انتابني، في أعماق نفسي، إحساس غريب. إحساس بأن هيتوشي ليس موجودا حقا، حتى وإن كان ماثلا أمام ناظري. وكم مرة كنت ألصق أذني خلال نومه، على صدره، ناحية القلب، مصغية إلى خفقات قلبه! وكان ذلك رغما عني. عندما يشرق محياه فجأة بابتسامة، كنت ألبث في مكاني، جامدة، أرمقه بعيني. لطالما تبدى من محياه، في ما يشيعه من حوله، نوعا من الشفافية وكنت أحسب أنها مصدر ذلك الإحساس الزائل غير المؤكد.

فيا للتعاسة، إذا كانت هذه هي الهواجس المسيطرة علي.

فَقْدُ حبيب: للمرة الأولى في حياتي كلها - ولم أكن آنذاك

قد تجاوزت العشرين عاما - قاسيت تلك التجربة، وكنت أكابد من الألم ما فاق طاقتي واحتمالي، منذ الأمسية التي تلت وفاته، انزلق قلبي إلى نطاق آخر وبات عاجزا عن الرجوع. فقد أصبح مستحيلا علي أن أرى العالم كما أبصرته عيناي في السابق. ورأسي الذي كأنه موار مع الأمواج، فاقداً لا تزانه، كان فارغا وثقيلا. ولم يكن لي إلا أن أرثي لحالي لأني انقدت إلى واحدة من حقب الحياة (إجهاض، بغاء، مرض خطير) التي أعفي منها البعض ممن حالفهم الحظ.

صحيح أننا كنا لا نزال في مقتبل العمر وأن ذاك لم يكن بالتأكيد الحب الأخير في حياتي، لكننا عشنا سويا، للمرة الأولى، كل صنوف التجارب. لقد بنينا تلك السنوات الأربع من خلال اكتشافناواختبارنا وطأة كل حدث من تلك الأحداث التي تطرأ حين يرتبط أحدنا بالآخر برباط حقيقي.

أما اليوم، وقد انتهى كل شيء، أصبح بإمكاني أن أقول ذلك بأعلى صوتي. أيتها الآلهة، إني ألعنكِ! لقد أحببت هيتوشي حتى الموت.

كل صباح، طيلة الشهرين اللذين أعقبا وفاة هيتوشي، شربت شايا ساخنا متكئة إلى دربزين الجسر الذي يصل بين ضفتي النهر. فبسبب عجزي عن النوم، اعتدت أن أمارس رياضة الجري عند الفجر، وصودف أن ذلك الجسر يقع بالضبط عند الموضع الذي منه أعود أدراجي.

كان النوم مساء يفزعني... أو ربما كانت صدمة اليقظة هي المرعبة. عندما أستيقظ فجأة، مدركة أين أنا حقا، ألبث هلعة

حيال العتمات السحيقة التي تكتنفني. كنت دائما أرى أحلاما لها صلة بهيتوشي. كان دائما هناك، في نومي السطحي المضطرب، تارة يكون حاضرا وتارة أخرى غائبا، غير أني أشعر بأن تلك لم تكن سوى أحلام وإني، في الحقيقة، لن أراه مجددا إلى الأبد. لذا، في غمرة أحلامي، كنت أبذل كل ما بوسعي لكي لا أستيقظ. يتعرق جسمي، وأتقلب ثم أتقلب في سريري. وكم من مرة، إذ يبتلعني جوف كابوس حتى الغثيان، وجدتني أفتح عينيَّ الغاشيتين عند الفجر، والبرد القارس! كان الصبح ينبلج في الجهة الأخرى من الستائر، فيما أجدني ملقاة في صمت زمان باهت، محبوسة الأنفاس. وأجد كل شيء كئيبا وجليديا فأندم لأني غادرت حلمي. ما كنت أستطيع الخلود للنوم ثانية لأن ذكريات أحلامي تقض مضجعي في وحشة الفجر. كنت دائما أستيقظ في تلك اللحظة. في آخر الأمر، استبد بي الخوف من الإجهاد الناتج عن الأرق، ومن تلك الساعات الطويلة التي كنت أقضيها وحيدة منتظرة، على حافة الجنون، أولى تباشير النهار، فصممت على مزاولة رياضة الجري.

ابتعت ثوبين غاليين وحذاء للرياضة وترمس ألومينيوم صغيرا. أحسب أن ذلك يدعو إلى الرثاء.. الاعتناء أولا بشراء اللوازم، لكني، في الوقت نفسه، وجدت أن تصرفي كان بالأحرى إيجابيا.

لقد شرعت بمزاولة رياضة الجري منذ بداية عطلة الربيع. كنت أجري حتى الجسر ثم أعود أدراجي إلى المنزل، وهناك،

بعد فراغي من غسل منشفتي وثوب الرياضة، أنصرف إلى مساعدة أمي في إعداد طعام الفطور. بعد ذلك أنام قليلا. وكانت حياتي تجري وفقا لتلك الوتيرة. عند المساء، كنت أبذل ما أمكنني لإشغال أوقات فراغي، فألتقي الأصدقاء أو أشاهد أفلام فيديو. غير أن جهودي تلك ما كانت لتجدي نفعا. ففي قرارة نفسي، كنت فاقدة الرغبة في أي شيء. كانت رغبتي الوحيدة هي أن أرى هيتوشي مجددا. ومع ذلك، كنت أشعر بأنني، مهما فعلت، ينبغي حتما أن أبقي يدي منهمكتين، وكذلك جسدي وقلبي. فقد كنت أريد أن أصدق بأن الجهود المبذولة مراراً وتكراراً لابد أن تفضي إلى أمر ما. لا شيء يؤكد بأنها ستفضي، ولكن علي أن أصمد إلى أن يحين الوقت. ففي آخر الأمر، لقد تمكنت من تجاوز موت كلبي وفقدي عصافيري الواحد تلو الآخر، وكانت تلك التجربة التي أحياها فرصةاستثنائية، وكانت الأيام تمضي برتابة من دون أفق، كأن اليباس يدب فيها شيئا فشيئا. وكنت دائما أردد بما يشبه أن يكون صلاة:

لعله خير، لعله خير، ذات يوم سوف تكتب لك النجاة!

كان مجرى النهر الذي حالما أبلغ ضفته ألتف عائدة على أعقابي، عريضا ويشطر المدينة شطرين. ولكي أبلغ الجسر الأبيض الذي يصل بين ضفتيه، تلزمني عشرون دقيقة. كنت أعشق ذلك المكان. فهناك اعتدت أن ألتقي هيتوشي الذي يقطن الضفة المقابلة، واستمر تعلقي بالمكان حتى بعد وفاته.

فوق الجسر المقفر الذي يهدهده خرير المياه، كنت أتوقف

لاستراحة قصيرة محتسية الشاي الساخن من الترمس الذي أحمله معي. المروج البيضاء مترامية على مد البصر، مغشية بضباب الفجر المائل إلى الزرقة، والذي يكتنف المدينة. كنت ألبث واقفة في الهواء النقي البارد الذي يخز الجلد، وأشعر بأني أقرب قليلا من «الموت». فالواقع أني ما كنت أتنفس حقا إلا في كنف ذلك المنظر ذي الشفافية الناصعة. أكان ذلك لميل مازوشي إلي؟ لا أعتقد ذلك. فلولا تلك اللحظات لما عثرت في ذات نفسي على مقدار من الثقة يعينني على مواجهة نهار جديد. كنت في أمس الحاجة إلى ذلك المنظر، كان أمرا حيويا بالنسبة لي.

مجددا، في ذلك الصباح، استيقظت مجفلة كأنني أطلع من لجة كابوس غامض. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف، وبدت تباشير النهار رائعة فارتديت، على جري عادتي، ملابسي وغادرت البيت لمزاولة الجري. كان الجو لا يزال معتما والشوارع مقفرة. كان الهواء يشيع بردا قارسا والمدينة طافية على مد أبيض. وإلى الشرق بدت السماء النيلية موشاة بحمرة تدرجية.

كنت أبذل جهدا لكي أواصل ركضي بحماسة. وأحيانا، إذ تتسارع أنفاسي لاهثة، كان يخيل إلي أنني بمثابرتي على الجري كما أفعل، وحاجتي الماسة إلى النوم، إنما أعذب جسدي باستنفاد طاقته، لكني سرعان ما كنت أطرد تلك الخاطرة من ذهني المشوش متذرعة بأنني سوف أتمكن من النوم عند عودتي. وفيما أعبر الشوارع الغارقة في صمت مطبق، كنت

أجد مشقة بالغة في الحفاظ على صفاء تفكيري.

كان هدير مياه النهر يقترب، والسماء تبدل ألوانها بين اللحظة واللحظة. ومن خلال صفائها المائل إلى الزرقة، تلوح تباشير نهار مشمس.

حين بلغت الجسر، اتكأت، كالعادة، إلى الدربزين، ورحت أنظر إلى المدينة ذات الحدود الغائمة، المكتنفة بالفضاء الأزرق. كانت المياه تجري مصحوبة بهدير مسموع، حاملة في جريانها دوامات من زبد أبيض وفضلات من كل نوع. وكان عرقي يجف شيئا فشيئا، فيما نسيم منعش وافد من النهر يلفح وجنتي. نصف قمر يظهر بوضوح في سماء شهر آذار الذي مازال محتفظا ببرودته. كنت أنفث من فمي بخارا أبيض، ورحت - من دون أن أحول عن النهر انظاري - أسكب شايا في غطاء الترمس. ولما هممت برشف الجرعة الأولى منه باغتني صوت من الخلف حين خاطبني قائلا: «أي صنف من الشاي هذا؟ حبذا لو أحظى، أنا أيضا، بجرعة منه!»

لشدة ما ذهلت أوقعت الترمس في النهر، وبقي الغطاء، الذي كنت قد سكبت فيه شايا ساخنا، في يدي.

ألتفت نحو الصوت حائرة فإذا بفتاة باسمة الطلعة، واقفة أمامي. لاحظت على الفور أنه تكبرني سنا، وإن كنت لا أستطيع أن أخمن كم عمرها بالضبط. خمسة وعشرين عاما، ربما...

كان شعرها قصيرا وعيناها واسعتين فاتحتين. وعلى الرغم من أنها ترتدي معطفا أبيض فوق ثيابها، فهي لا تبدو متأثرة بالبرد. وبدت وقفتها تلقائية كأنها لطالما كانت هناك.

بصوت رقيق، أخنّ نوعا ما، قالت لي ضاحكة مبتهجة: «ما جرى الآن يشبه قصة ذلك الكلب... ما اسمه، بالمناسبة، أهو «غريم» أم «إيزوب»؟

- الفارق، أجبتها قائلة بنبرة هادئة، انه حين رأى انعكاس صورته في المياه أفلت قطعة العظم من خطمه، ولم يتسبب في الأمر شخص آخر!»

- قالت باسمة: «حسنا» في المرة المقبلة سأحضر لك ترمسا هدية!

- شكرا! قلت ضاحكة.

كانت رابطة الجأش بحيث أشعرتني بأني عاجزة عن الغضب، لابل وجدت حتى أن ما جرى أمر تافه. ثم وجدت أن فيها أمرا ما يجعلها مختلفة عن الناس الغريبي الأطوار أو عن السكارى الذين يعودون إلى منازلهم عند بزوغ الفجر. كانت نظرتها ثاقبة وعلى قدر مذهل من الوضوح... أما وجهها فبدا مجربا عميق السمات كأنها خبرت كل أحزان العالم ومباهجه... ومنه يتأتى ذلك السحر الذي يشيعه حضورها.

بعد أن احتسيت جرعة من الشاي لأرطب جفاف حلقي، قلت لها: «هاك البقية، إنها لك، هذا شاي صيني، من صنف «بو- إره» ومددت يدي نحوها ممسكة بالغطاء.

- «عافاك، إني أعشق هذا الصنف!» أجابت مستثارة وهي تأخذ الغطاء براحتيها الرقيقتين.

«لقد وصلت حديثا إلى هنا. جئت من مكان بعيد» قالت

وعيناها تلتمعان بالحماسة التي يبديها بعض المسافرين، ثم حدقت بصفحة الماء.

- ألغرض السياحة جئت؟ سألت وفي ظني أن لا أماكن سياحية في الجوار.

- أجل! أما علمت؟ سوف يتاح لنا، في وقت قريب جدا، أن نرى مشهدا استثنائيا لا يحدث إلا مرة واحدة كل مائة عام!

- مشهدا؟

- أجل، إذا سمحت الظروف...

- من أي نوع؟

- حتى الآن مازال الأمر طي الكتمان. لكنني سأطلعك عليه، أعدك بذلك، لأنك قدمت لي الشاي... قالت.

- ثم تبسمت ولم أجرؤ على طرح المزيد من الأسئلة. كان الصباح قد صار وشيكا ولن يلبث أن يغمر العالم. الضوء يمازج زرقة السماء وشعاعات خافته توشي الفضاء ببريق أبيض.

وإذ هممت بالعودة، قلت لها: «حسنا، سوف أتركك!» فرمقتني بنظرات مباشرة وعين تلتمع بصفاء السريرة: أدعى أورارا. وأنت؟

- ساتسوكي.

- سوف نلتقي قريبا، قالت، وأشارت بيدها مودعة.

- أنا أيضا لوحت بيدي مودعة وغادرت الجسر. كانت تلك الفتاة غريبة الأطوار. لم أفهم شيئا مما كانت تقوله، ولكن لابد أنها لا تحيا حياة اعتيادية. وكان أمرها يزداد غموضا كلما

تقدمت خطوة، ثم التفت وقد تملكني قلق غامض: كانت أورارا لا تزال فوق الجسر.

- كانت مستغرقة في مراقبة مياه النهر، متأملة. عندها أذهلني ما رأيته من الملمح الجانبي لوجهها: كان مختلفا كل الاختلاف عما رأيته منذ قليل. ذلك أني لم أر يوما، على وجه كائن بشري، ملمحاً بمثل تلك القساوة.

تنبهت إلى توقفي فلوحت بيدها مجددا، مبتسمة، فسارعت إلى التلويح بدوري وتابعت طريقي.

عساها من تكون؟ تردد السؤال في خاطري مرارا وتكرارا ذلك الصباح. وفي ذهني الذي كان يغالب النعاس، لم يبق محفورا سوى صورة تلك الفتاة الغريبة التي تدعى أورارا، باهرة تجللها هالة من الشمس.

كان لهيتوشي أخ يصغره سنا، وكان غريب الأطوار بعض الشيء. ففي طريقة تفكيره وفي أسلوبه في الحياة كان هناك دائما ما يدعو إلى الاستغراب، كأنه ترعرع على كوكب آخر،ثم أطلق في هذا العالم حين بلغ سن الرشد، وعثر فيه على مكانه... ذلك كان انطباعي عنه منذ أن عرفته. كان يدعى هييراجي. وبلغ لتوه الثامنة عشرة من عمره.

ذلك اليوم، كان موعدنا في صالة للشاي، في الطبقة الثالثة من مبنى أحد المخازن الكبرى، بعد دوام المدرسة، ورأيته مقبلا في زي مدرسي لتلميذة مرتديا فوقه قميص بحار.

شعرت وقتها بحرج فظيع، لكنه اقترب مني بتلقائية كأن

شيئا لم يكن، فتظاهرت بأني لم ألحظ شيئا. جلس قبالتي وسألني مستدركا أنفاسه: «أجعلتك تنتظرين طويلا؟» وإذ أشرت برأسي نافية، تبسم لي مبتهجا. حين جاءت النادلة لتسأل عن طلباتنا حدقت به- وقد التبس عليها الأمر - بنظراتها الحائرة من رأسه حتى أخمص قدميه.

لم يكن، من حيث المحيَّا، شديد الشبه بأخيه، غير أني حين كنت أنظر إلى شكل أصابعه، أو إلى بعض الملامح التي تتلبس قسماته، كنت أشعر بأن قلبي سيتوقف عن الخفقان.

«أوه!» كعادتي في مثل تلك المواقف استغرقت في ضحك متماد.

« ما الأمر؟» سألني هييراجي محدقا بي، ممسكا فنجانه بيده.

« إنك تشبهه... » قلت. فيما شرع، هو، بلعبة التظاهر تلك والتي كان يسميها «تقليد هيتوشي»، وضحكنا كثيرا. إذ كنا لا نستطيع أن نفعل أكثر من اللهو بجراحنا العميقة.

كنت قد فقدت حبيبا، أما هو فقد فقد، في الوقت نفسه، أخاه والفتاة التي أحبها.

كانت تدعى يوميكو، وكانت في مثل سنه. فتاة جميلة، منمنمة، تمارس رياضة التنس. وبما أننا كنا، نحن الأربعة، في أعمار متقاربة أصبحنا أصدقاء وصرنا نقضي معظم أوقات فراغنا سويا. وعندما أقصد هيتوشي في منزله، ألتقي هناك يوميكو بصحبة هييراجي. وكم من السهرات أمضيناها ونحن نتبارى للفوز في الألعاب الفكرية على أنواعها!

في ذلك المساء، كانت يوميكو قد جاءت للقاء هييراجي، وأثناء اصطحابها بالسيارة إلى محطة القطار، قبل أن يوافيني، تعرض هيتوشي لتلك الحادثة. لم تكن غلطتها، لكنهما قتلا، على الفور.

«أما زلت تمارسين رياضة الجري؟ سألني هييراجي.

- أجل.

- ومع ذلك سمنت!

-هذا لأني أتسكع طيلة النهار!!

وضحكت. فالواقع أني كنت أفقد وزني بسرعة كبيرة .

« الرياضة وحدها لا تكفي للحفاظ على رشاقة الجسم.

اسمعي، لدي فكرة ! هناك مطعم أفتتح حديثا قرب منزلي وفيه يقدمون أطباقا لذيذة بالتمبورا. إنها غنية بالسعرات الحرارية. هيا بنا! الآن، على الفور!» قال. لم يكن لهييراجي طباع هيتوشي نفسها، غير أن تربيتهما قد حبتهما تلقائيا، هما الاثنين، بلطف دونما ادعاء أو أفكار مسبقة. مثل ذاك اللطف الذي بدر من هيتوشي حين غلف بمنديله الجرس الصغير، بعناية كبيرة.

« إنها فكرة جيدة !» قلت.

كان الثوب الذي يرتديه هييراجي تذكاراً من يوميكو.

منذ وفاتها اعتاد أن يذهب إلى الثانوية مرتدياً ذلك الزي. كانت يوميكو تحب زيها المدرسي. أهله وأهلها رجوه أن يخلع تلك التنوره، لأن ذلك ماكان ليفرح يوميكو، كما زعموا. لكن هييراجي قابل رجاءهم بضحكة ولم يرضخ. ولما سألته عما إذا

كان يرتدي ذلك الزي لنزعة عاطفية مغالية، أجابني بلا قاطعة، وبأن الأموات لا يرجعون إلى الحياة، والأشياء ليست سوى الأشياء. لكن ذلك يعينه على الاستمرار.

إلى متى سترتدي هذا الزي؟ سألته.

- لا أدري» أجابني قائلاً وقد بدا متجهماً.

« ألا يوجهون إليك ملاحظات غريبة؟ ألا تسري شائعات رذيلة بشأنك بين طلاب المدرسة؟»

- لا، على العكس من ذلك... صدقيني إذا قلت إنني أحظى بتعاطف الجميع، ولي حظوة منقطعة النظير لدى الفتيات... ربما لأنني بارتدائي التنورة أدرك، على نحو أفضل، بماذا يشعرن.

- «يسرني سماع ذلك!» قلت ضاحكة.

من خلال واجهات صالة الشاي المطلة، كنا نرى زرافات العابرين الساعين وراء مايحتاجون إليه من البضائع. ملابس الربيع المعروضة في أجنحة ذلك المخزن الكبير، مشرقةً تحت الأنوار، وكل شيء عند اقتراب المساء يوحي بالسعادة.

فجأة أدركت حقيقة الأمر. فهذا الزي المدرسي هو بالنسبة له كرياضة الجري بالنسبة لي. إنهما يؤديان دوراً مماثلاً، والفارق الوحيد هو أني كنت مكتفية برياضة الجري لأني لست غريبة الأطوار مثله. فهو يحتاج، لكي يبقى صامداً، إلى أمر أشد وقعاً فاختار ذلك الزي. ولكن في كلتا الحالين، لم يكن ما اخترناه سوى وسائل من شأنها أن تخفف عن قلبينا المزقين وأن تلهينا بانتظار أيام أفضل.

خلال هذين الشهرين، ارتسم ملمح جديد على وجهينا. ملمح الناس الذين يجهدون في عدم التفكير في من فقدوهم.

ارتسم الملمح على قسماتنا، على الرغم منا، في الظلمات التي اكتنفتنا، والعزلة التي كانت تغرقنا أحيانا عندما نستعيد ذكرى ما.

إذا كنا سنأكل في الخارج، فسينبغي أن أتصل هاتفيا بالمنزل. وأنت؟ هل هناك ضير في أن تتعشى خارج المنزل؟

سألت وأنا أنهض من مكاني.

- أوه، صحيح! أبي غائب عن المنزل اليوم.

- والدتك وحيدة. إذا ينبغي أن تعود!

- لا، لا بأس، سأعمل على طلب وجبة لشخص واحد لأجلها، بواسطة خدمة المنازل. مازال الوقت مبكرا، لذا أعتقد أنها لم تعد الطعام بعد. ستفاجأ بوجبة مقدمة من ابنها!

- إنها فكرة لطيفة جدا!

- وترفع المعنويات، أليس كذلك؟

وضحك هييراجي ببهجة بادية. ففي مثل تلك المواقف، كان ذلك الفتى الذي يبدو في العادة، بالغا، يستعيد بعضا من ملامح المراهق.

ذات يوم من أيام الشتاء، قال لي هيتوشي: «لدي شقيق أصغر مني، يدعى هييراجي».

وكانت تلك هي المرة الأولى التي كان يحدثني فيها عن هذا الصبي. كان الطقس مثلجا، وتحت سماء رمادية ملبدة كنا نهبط السلم الحجري في الناحية الخلفية من المدرسة. قال لي

هيتوشي وقد دس يديه في جيبي معطفه، والغبش الأبيض ينبعث من أنفاسه: الغريب أنه بالغ أكثر مني...

بالغ؟ قلت ضاحكة.

أجل، كيف لي أن أفسر الأمر؟... إنه يمتلك مقدارا من رباطة الجأش... ولكن في الأمور التي تمسّ العائلة، وهنا تكمن المفارقة، يتصرف مثل طفل. أمس، جرح أبي، عن طريق الخطأ، يده بشظية زجاج، فجن جنون أخي على نحو لافت، كأن العالم قد انهار فجأة. أذكر ذلك الآن، لأن الأمر لم يكن متوقعا!

- كم عمره؟

- أوه... خمسة عشر عاما على ما أعتقد.

- أود أن ألتقي به.

- لكنه ذو مزاج خاص. لا أحد يصدق أننا شقيقان.

وأخشى إن عرفتك به أن تكرهيني أنا أيضا؟ صدقيني إنه غريب الأطوار حقاً! قال بابتسامة زاخرة بما يشعر به من حنان حيال أخيه الصغير.

- إذاً سيكون عليَّ أن أنتظر بعد، إلى اليوم الذي يصير فيه حبنا من المتانة بحيث يمكنه الصمود حيال غرابة أطوار شقيقك!

- طبعا لا، إنها مجرد دعابة! ليست هناك مشكلة على الإطلاق. إني واثق من أنكما ستتفقان. أنت أيضا لك حصتك من غرابة الأطوار، ثم ان هيراجي يجيد انتقاء الأشخاص الذين يتمتعون بالطيبة!

- الطيبة؟

- أجل، أجل!

ضحك هيتوشي من دون أن يلتفت نحوي. فلطالما أشعرته مثل تلك المواقف بشيء من الحرج.

كان السلم شديد الانحدار، ولا أدري لماذا حثثت الخطى. كانت سماء الشتاء الموشكة على التلبد بالغيوم، تنعكس، صافية، على زجاج نوافذ المدرسة المطلية بالأبيض.

أذكر حذائي الأسود الذي كان يطأ الدرجات، واحدة تلو الأخرى، وجوربيَّ الطويلين، وهدب تنورة زيي المدرسي.

في الخارج، كان الليل قد هبط منذ بعض الوقت، زاخرا بروائح الربيع.

كان معطف هييراجي يستر تنورة التلميذة، مماأشعرني ببعض الارتياح. واجهات المخزن الكبير المضاءة تنير الأرصفة حيث يتدافع المارة، راشقة وجوههم ببريق أبيض. وكان الهواء، على الرغم من عطره الربيعي الناعم، مازال محتفظا ببرودته المعتادة، فأخرجت قفازي من جيبي.

مطعم التمبورا الذي حدثتك عنه يقع على مقربة من منزلي، فعلينا أن نسير قليلا! قال هييراجي.

- « سوف نعبر الجسر». أجبته قائلة، ثم لزمت الصمت.. تذكرت تلك الفتاة، أورارا، التي التقيتها هناك. منذ ذلك اليوم، حرصت على أن أذهب إلى الجسر كل صباح، لكني لم أرها... كنت مستغرقة في أفكاري عندما خاطبني هييراجي فجأة «بصوت عال: وطبعا، سأصحبك في طريق العودة!» فالظاهر أن صمتي المفاجئ أوحى إليه بأن طول المسافة قد أوهن عزيمتي».

«لا، لا داعي لذلك، لم يتأخر الوقت بعد!» أجبته على الفور وفي سري أقول هذه المرة: «كم تشبهه!» إذ لم يعد مجبرا على تقليده، لشدة ما اتضح أنهما شقيقان حقا. لم يكن من عادة هيتوشي أن يلغي المسافة التي وضعها بينه وبين الآخرين، غير أن لطفه ينبعث تلقائيا من كلامه، وكان ذلك المزيج من البرودة والعفوية يمنح قلبي شيئا من الصفاء. كان إحساسا عذبا. أحياه مجددا الآن بحنين، وبانفطار قلب.

«منذ بضعة أيام، ذهبت للركض صباحا، إلى أن بلغت الجسر، وهناك التقيت شخصا مثيرا للفضول. هذا ما جعلني ساهية منذ قليل، فقد تذكرت ما جرى، قلت له، وقد تابعت سيري.

- شخصا مثيرا للفضول... أكان رجلا؟ سأل هييراجي ضاحكا. فالركض عند الفجر أمرا له مخاطر!

- لا، لا، ليس هذا ما أعني! كانت امرأة. امرأة لن أنساها مهما حاولت.

- حقا؟... سيكون أمراً حسناً إن استطعت مقابلتها مجدداً.

- أجل...»

ما قاله كان صحيحا: فلا أدري لماذا، لكني كنت راغبة بشدة في أن أرى أورارا مجدداً، مع أني لم ألتق بتلك الفتاة سوى مرة واحدة. ولكن أي انطباع تركته لدي. في تلك اللحظة بالذات أحسست بأن قلبي سيتوقف. كانت تبتسم برقة طوال الوقت، ولكن، مرة واحدة فقط، تغيرت ملامح وجهها، كأنها جنّي تلبس هيئة إنس لم يلبث، إذ ضاق بما آل إليه، أن يمزق قناعه بعنف.

بدا الأمر مثيرا. وخيل إلي أن كآبتي وألمي لا يضاهيان شيئا مما كابدته من كآبةٍ وألم. وقلت في سري إنه ربما كان لا يزال هناك ما أفعله في هذه الحياة.

لما وصلنا إلى المنعطف الكبير في وسط المدينة شعرنا بضيق (أنا وهييراجي). هناك حصلت الحادثة التي أودت بحياة هيتوشي ويوميكو. كانت حركة المرور، على جري العادة، مزدحمة جداً. ضوء إشارة المرور أخضر، فتوقفنا جنبا إلى جنب.

« أتساءل أحيانا عما إذا كانت هذه النواحي لا تعج بالعائدين من الموت» قال هييراجي ضاحكا، لكن عينيه لا تضحكان.

«كنت واثقة من أنك ستقول ما قلت لتوك!»

أنا أيضا، ضحكت بمشقة.

كانت ألوان مصابيح السيارات تتقاطع، فيدلف إلينا سيل من الأنوار المتعرجة، وأضواء إشارة المرور عائمة كبقع فاتحة في لجة العتمات. هناك مات هيتوشي. شعور بالأسى تسلل إلى أعماقي. فحين يموت الناس الذين نحبهم، يتوقف الزمن إلى الأبد. «لو نستطيع، بوقوفنا عند الموضع الذي كانوا فيه، أن نشعر بألمهم...»، يقول البعض. فيما مضى، خلال زيارتي لقصر ما أو لموقع سياحي ما، كنت أشعر حين يقال لنا: «منذ سنوات طويلة كان فلان يتجول هنا، وبإمكانكم أن تتحسسوا ماديا ذلك الحضور الماثل للماضي»، بأن كل هذا ليس سوى هذر، لكنني في تلك اللحظة كنت أرى الأمور على نحو مختلف. كان يخيل إلي بأنني أدرك حقيقة ذلك الكلام.

ذلك المنعطف، الوان الليل التي عليها تطفو صفوف المخازن والمباني... ذلك كان آخر منظر أبصره هيتوشي. وقد حدث ذلك منذ وقت ليس بالبعيد.

أي مقدار من الخوف أحس به آنذاك؟ هل فكر بي ولو لثانية واحدة؟... والقمر، هل كان، مثل اليوم، يواصل صعوده إلى قبة السماء؟

«الإشارة حمراء!»

لو لم يدفعني هييراجي، من كتفي، لمكثت غارقة في أفكار مشوشة، ساهية أحدق بالقمر. كان ضياؤه الخفر الأبيض فاتنا، وبريقه بارد مثل لؤلؤة.

«إنه لذيذ جدا!» قلت. فقد كان طبق الكاكياجيدون(*)، الذي انهمكت في التهامه على طاولة الأكل في ذلك المطعم الصغير المفتتح حديثا والعابق برائحة الخشب، لذيذا إلى حد أشعرني مجددا بالشهية العارمة.

«لذيذ جدا!» قال هييراجي.

- حقا، ممتاز. عندما يأكل أحدنا مثل هذا الطعام اللذيذ لا يندم لأنه جاء إلى هذه الدنيا!

حيال حماستي البادية تلك، شعر مالك المطعم، من وراء طاولته، بشيء من الحرج.

«كنت واثقا من ذلك! كنت أعلم أنك ستقولين ما قلت الآن! أنت تملكين حاسة ذوق مرهفة. وأني سعيد جدا لأن الطعام هنا قد نال استحسانك!» قال دفعة واحدة، مبتسما، وذهب لطلب

(*) طبق أرز مع التمبورا.

طبق آخر يوصله ساعي الخدمة المنزلية إلى أمه.

إني من طينة الناس الذين يتريثون في مكابدة التجارب، كما ينبغي علي أن أجرجر خطواتي متمهلة في هذا النفق، قلت في سري فيما ألتهم طبق الكاكياجيدون. لكني أود حقا أن يستعيد هييراجي، وبأسرع وقت، تلك الابتسامة، دون أن يكون عليه، لأجل ذلك، أن يرتدي تنورة التلميذة.

ذات يوم، وعلى نحو مباغت قرابة الظهر، اتصلت بي. كان الزكام قد أقعدني عن رياضتي اليومية، فلزمت السرير متكاسلة. كان رنين جرس الهاتف يتردد بإلحاح في رأسي المحموم فأجبرني على النهوض مشوشة الذهن. فالواضح أن لا أحد في البيت سواي، وعلي أن أسير حتى الرواق لكي أرفع السماعة.

- نعم.

- ألو! هل ساتسوكي هنا؟

- سمعت صوتا أنثويا مجهولا، يردد اسمي.

«أجل، هذه أنا...، أجبت بشيء من القلق.

«هذه أنا، قالت المرأة المتكلمة على الطرف الآخر من الخط، أورارا»

صعقت للمفاجأة. لقد كان لها أن تدهشني للمرة الثانية. فلم أكن أتوقع، إطلاقا، تلك المكالمة.

قد يبدو الأمر مباغتا بعض الشيء، ولكن هل أنت متفرغة الآن؟ أليس بإمكانك أن تأتي إلي؟

بـ... بـ... حسنا، ولكن... كيف حصلت على رقم هاتفي؟

سألت بصوت مضطرب. كان واضحا أنها تتصل بي من كابينة عمومية لأن هدير السيارات يتناهى إلى مسمعي، وشعرت بأنها كانت تبتسم.

«عندما يصر المرء على الحصول على شيء فلابد أن يحصل عليه» أجابت وكأنها تتلو تعويذة سحرية. وكان كلامها تلقائيا، حيث إني أحجمت عن طرح المزيد من الأسئلة.

«حسنا إذًا، سنلتقي في الطبقة الرابعة من المخزن الكبير قبالة المحطة، في جناح بيع الأواني المنزلية»

وأقفلت الخط.

في العادة، حين أكون مصابة بزكام كما كانت حالي عند اتصالها، لا تراودني رغبة في مغادرة الفراش مهما كان الداعي. فما أن وضعت السماعة، رحت ألوم نفسي لأني قبلت. كانت ساقاي واهنتين، وإحساسي بأن حرارة جسمي سوف ترتفع. لكني، مدفوعة بالفضول لأن التقيها مجددا، شرعت في ارتداء ملابسي، بلا تردد، كأنما بصيص الغريزة الغامز في أعماق قلبي، يحثني على الذهاب.

عندما أستعيد، الآن، ما جرى، يخيل إلي أن قدري كان سلما ولزاما علي ألا أخطئ درجة واحدة منه. فإن أخطأت واحدة لما تمكنت من بلوغ قمته. ومع ذلك كان الاستسلام للسقوط منه من أيسر الحلول. إن ما قاد خطواتي، كان، بالتأكيد، ذلك البصيص الخافت الذي طالما بقي ملتمعا في قلبي المشرف على الموت. تلك الشرارة في كنف العتمات، والتي كم وددت ألا أبصرها لكي أستطيع أن أنام.

ارتديت ملابس دافئة وانطلقت على دراجتي. كان نهارا مكتنفا بضوء فاتر يبشر حقا بقدوم الربيع. وكانت النسمات التي هبت لتوها تلفح وجنتي بعذوبة. في الشوارع، أوراق خضراء، نابتة، تنعقد على غصون الأشجار. وكانت زرقة السماء الشاحبة، المتعكرة قليلا، تتبسط مترامية.

حيال ذلك المقدار من الطراوة،أحسست كم أن كل شيء فيَّ قد صار يابسا. لم يستطع مشهد الربيع أن يتسلل إلى قلبي. كان يحوم على السطح منعكسا عليه كفقاعة صابون. كان كل شيء يتنفس ويزداد ألقا مشبعا بأشعة الشمس الرقيقة. وسط ذلك المنظر المفعم بالحياة كنت أتحسر على الشوارع المقفرة في الشتاء، ومجرى النهر الجاف عند الفجر. وكنت أود لو أنكسر نثارا وأتلاشى.

كانت أورارا واقفة أمام رفوف الأواني المنزلية. كانت ترتدي بلوفر زهريا، وتقف منتصبة القامة وسط جمهرة، لكنها، تلك المرة، بدت لي في مثل سني.

«صباح الخير! قلت مقتربة منها»

ماذا، هل أنت مصابة بالزكام؟ قالت بادية الدهشة. أعذريني! لو كنت أعلم...

هل أبدو مزكومة؟ سألت ضاحكة.

أجل، يبدو الاحمرار على وجهك! إذا، هيا اختاري بسرعة ما يعجبك منها... قالت وقد استدارت نحو الرفوف. أتفضلين ترمسا كبيرا؟ ولكن ربما كان من الأفضل أن تختاري الأخف وزنا ليسهل عليك حمله أثناء الجري... خذي، مثلا، هذا

الترمس هو نفسه الذي فقدته ذلك اليوم! أما إذا كنت تفضلين الجميل ذا الطابع الفني فما علينا إلا أن نقصد جناح البضائع الصينية.

كانت تتكلم بحماسة جعلتني أشعر باحمرار وجنتي لشدة سروري.

«حسنا إذا، سأكتفي بهذا» قلت مشيرة بإصبعي إلى ترمس صغير الحجم، أبيض براق.

«أيتها الزبونة العزيزة، أرى أنك تجيدين الاختيار!» أجابت أورارا، وابتاعته لي.

أثناء جلوسنا لاحتساء الشاي في مقهى متواضع، في الطبقة الأخيرة من المخزن الكبير، قالت لي أورارا: «خذي، أحضرت لك هذه!» وأخرجت من جيب معطفها أكياسا صغيرة. وأذهلني عددها الكبير.

أعرف بائع شاي، فطلبت منه أن يعد لي مجموعة من الأصناف المختارة. فهنا تجدين كل أنواع الأعشاب والشاي الإنجليزي والشاي الصيني... أسماؤها مدونة على الأكياس. فقد خطر لي أنك ربما يستهويك أن تجربيها جميعا لملء الترمس.

شكرا جزيلا!

لا تشكريني! لقد كنت السبب في سقوط ترمسك الغالي في مجرى النهر!»

وضحكت.

كان الطقس جميلا بعد ظهر ذلك اليوم، والرؤية واضحة،

كانت أشعة الشمس تضفي على المدينة بريقا صارخا يكاد أن يترك في القلب لوعة، أما ظلال السحب إذ تتنقل متمهلة، تقسم شوارع المدينة بين نطاقات ظل ونطاقات ضياء. كان نهارا هادئا. لم يكن بمقدوري، بسبب أنفي المزكوم، أن أتمتع بمذاق ما أحتسيه، ولكن فيما عدا ذلك، كان كل شيء على أحسن ما يرام. كان طقسا هادئا جدا!

أخبريني... بصراحة، كيف حصلت على رقم هاتفي؟

أقسم بأن ما قلته لك هو كل الحقيقة، أجابت مبتسمة. عندما يحيا أحدنا وحيدا لفترة طويلة، متنقلا على الدوام من مكان إلى آخر، فإن ذلك سيؤدي إلى شحذ بعض الحواس لتصبح كتلك التي تمتلكها الحيوانات البرية. ولا أدري منذ متى نمت فيَّ مثل هذه الأمور... إذ حاولت أن أحزر رقم هاتف ما.. رقم هاتفك، على سبيل المثال: يكفي أن أضع يدي على قرص الأرقام، وعندئذ تتحرك أصابعي من تلقائها، وفي الأغلب يكتب لي التوفيق!

في الأغلب؟ قلت، مبتسمة.

أجل، في الأغلب. فعندما أخطئ، أعتذر بلطف وأضع السماعة. ثم، لخجلي، تحمر وجنتاي قليلا، وينتهي الأمر!

ثم راحت تضحك مبتهجة.

هناك بالتأكيد وسائل عملية لا تحصى للحصول على رقم هاتف ما، لكني كنت أريد أن أصدق ما حكته لي بتلقائية مذهلة. لقد كانت تملك في شخصيتها ذلك الشيء الذي يوحي بالثقة، وكان جانب مني يسر إلي بأنني لطالما عرفتها، ويبكي

فرحا لأنه عثر عليها مجددا.

أشعر بامتنان عميق لأنك أتحت لي أن ألتقيك هذا اليوم. لقد أسعدني ذلك كثيرا، كمن يلتقي حبيبا!

في هذه الحال، اسمعي جيدا يا صديقتي الحسناء: أولا يجب أن تتعافي من زكامك بعد غد على الأكثر!

لِمَ؟ آه، بلى... المشهد الذي حدثتني عنه، أسيحدث بعد غد؟

لقد حزرت! إذاً اسمعيني جيدا: عليك بالكتمان التام! وأردفت أورارا قائلة بصوت خفيض: «إذا تمكنت، بعد غد، من الحضور عند الخامسة إلا ثلاث دقائق في أبعد تقدير، إلى المكان الذي ألتقينا فيه ذلك اليوم، ربما أتيح لك أن تشهدي أمرا...»

أمرا؟ ولكن ما هو؟ عما تتحدثين؟ هل من الممكن ألا أشهد شيئا؟

أكان ممكنا ألا أعاجلها بكل تلك الأسئلة؟

الأمر منوط بما سيكون عليه الجو ومنوط بحالتك أيضا. ولأن المسألة دقيقة، لا يسعني ضمان أي شيء. ربما كنت مخطئة، ولكن حدسي يسر لي بأن ثمة صلة وثيقة بين النهر وبينك. لذا أجدني واثقة من أنك سترين شيئا. بعد غد، عند الساعة التي ذكرتها، فقد نشهد في ذلك المكان، إذا اجتمعت الظروف المواتية، سرابا ما لا يظهر إلا مرة واحدة كل مائة عام. وأرجو أن تعذري كثرة استخدامي لـ «قد» و «ربما...»

لم تبدد تلك الشروحات التي لم أدرك مغزاها شيئا من

حيرتي، لكنني أحسست بقلبي مختلجا لا يطيق صبرا على انتظار اليوم الموعود، هو الذي لم يعرف أمرا مماثلا منذ وقت طويل.

أهو أمر جيد؟

أوه... لنقل إنه أمر نادر بأية حال. لكن كل شيء منوط بك. قالت أورارا.

بي أنا؟

منوط بي، أنا المسحوقة، التي لا تعرف حتى كيف تحمي نفسها...

حسنا، سأكون هناك!

ورحت أضحك.

صلة ما بيني وبين النهر. أجفلني ترداد تلك الكلمات، فقلت في سري: «بلى، هذا صحيح! » فذلك النهر هو الحد الفاصل بين هيتوشي وبيني. وعندما أعبر الجسر يتراءى لي هيتوشي، على الفور، منتظرا قدومي في ذلك المكان. كنت دائما أصل متأخرة، ودائما أجده هناك. وفي طريق عودتنا كنا دائما نفترق على ذلك الجسر، لكي يعود كل منا إلى منزله. وهناك أيضا رأيته للمرة الأخيرة.

أستذهب هذا المساء إلى بيت تاكاهاشي؟

آخر حديث بيننا بدأ بهذه العبارة. كنت، آنذاك، لا أزال سعيدة، وأقل نحولا مما أنا عليه اليوم.

أجل، ولكن ينبغي أولا أن أعرج على البيت. منذ مدة طويلة لم نلتق كأصحاب فيما بيننا.

بلمهم تحياتي. وبما أن السهرة مقتصرة على الفتيان، أحسب انكم ستتمادون في سرد بذاءاتكم!

طبعا! وما العيب في ذلك؟ أجاب ضاحكا.

كنا قد أمضين نهارا ممتعا، ثم تمشينا، فرحين لا مبالين، بما يشبه الثمالة. كان برد الشتاء يتسرب إلى عظامنا، والسماء الليلية البديعة تضفي على الشوارع قبسا من روعتها. كان مزاجي رائعا والهواء ينخز وجنتي، والنجوم تلمع. وكنت أشعر، داخل جيبه، بالدفء العذب لكفينا المتشابكتين.

اطمئني، لن أخبرهم عنك ما قد يزعجك!

أضحكتني تلك العبارة التي أضافها بما يشبه الاستدراك، فأحكمت رباط الوشاح حول رأسي لكي أكتم ضحكة عفوية. ثم رحت أسأل في سري: «كيف يعقل أن أحبه بالمقدار نفسه منذ أربع سنوات إلى اليوم؟» وحين أستعيد تلك الذكرى، الآن، يخيل إلي أنني كبرت عشر سنوات منذ ذلك الحين. كنت أسمع خرير مياه النهر وأشعر بالحزن لأنني سأفترق عن هيتوشي.

عند ذلك الجسر. هناك افترقنا من دون أن ندرك أن فراقنا ذاك سيكون إلى الأبد. كان النهر يجري بهدير يسري في جسمينا مثل لسعة البرد، وريح صقيع تلسع وجهينا. افترقنا مصحوبين بهدهدة المياه المنعشة، تحت سماء مرصعة بالنجوم، بعد أن تبادلنا قبلة خاطفة، ضاحكين لذكرى عطلة الشتاء التي قضيناها مغمورين بالسعادة. ثم ابتعد الجرس الصغير الذي تردد رنينه في قلب الليل. كنا مفعمين بالحنان الغامر الذي كان كل منا يكنه للآخر.

لقد عشنا مواقف رهيبة وبعض الخيانات الطفيفة أيضا. كنا نتعذب أحيانا، ممزقين بين الرغبة والحب، وغالبا ما كنا نؤذي بعضنا البعض لانعدام خبرتنا في الحياة. طيلة الأعوام الأربعة تلك، الزاخرة بكل التقلبات، لم تكن الأمور دائما يسيرة. ومع ذلك كانت سنوات جميلة. وذلك اليوم بالذات كان مثاليا.. كان مثاليا إلى حدٍّ رجوت معه ألا ينتهي، وفي اللحظة، وكأن النهار الرائع الذي أمضيناه معا لابد أن يبلغ ذروة روعته، استدار هيتوشي ملتفتا نحوي. ومازلت إلى اليوم، أذكر سترته السوداء التي ذابت، نائية، في لجة الظلمات.

كم مرة أعادت لي الذكرى تلك الحظات وأبكتني! كلما تذكرتها تنهمر الدموع من عيني. وكم مرة أيضا رأيت الحلم نفسه: أعبر الجسر راكضة لكي ألحق بهيتوشي، وأتوسل إليه بألا يذهب، فأعيده إلي. وعندئذ كان يقول لي ضاحكا: «بفضلك أنت نجوت من الموت!»

بمضي الأيام ما عادت تلك الصور تبكيني حين أستعيدها في ذاكرتي، بل إنها كانت تجعلني أشد حزنا: أما هيتوشي الذي كان بعيدا جدا بدا لي أنه يبتعد أكثر فأكثر.

تركت أورارا غير مقتنعة كليا «بذاك الشيء الذي قد يظهر لي بقرب النهر» ، مع أن قلبي كان مفعما بما يشبه الرجاء. ثم توارت مبتسمة في شوارع المدينة.

قلت في سري إنه حتى لو كانت مجرد فتاة مولعة بالكذب، وحتى لو كنت سأخدع بعد أن أهرع لملاقاتها عند الفجر،

خافقة القلب، فلن يبدل ذلك من الأمر شيئا. فبفضلها انبثق قوس قزح في أعماقي، وبفضلها هي شعرت ببهجة غامرة تنبعث في كتلك البهجة التي نبديها حيال الغير المتوقع، وانتعش قلبي بنفحة هواء، حتى لو لم يحصل شيء، فلمجرد أن ألبث بجانبها مستغرقة في تأمل مياه النهر الجارية، باردة لامعة في الصباح الباكر، سوف أشعر بأني على أحسن حال. وكان ذلك يكفيني.

كنت أسير حاملة الترمس تحت إبطي، مستغرقة في التفكير في كل هذا. وفيما كنت أجتاز المحطة لاستعادة دراجتي، لمحت هييراجي.

كنت أعلم أن عطلة الربيع لم تبدأ بعد بالنسبة للمرحلة الثانوية. وإذا كان هييراجي يتسكع في شوارع المدينة فترة بعد الظهر من دون زي التلميذة الذي اعتاد ارتداءه، فهذا يعني أنه يتخلف عن حصص الدراسة. ولمجرد التفكير في مثل هذا الاحتمال رحت ابتسم.

كان بإمكاني أن أناديه وأن أهرع للحاق به، لكن ذلك من شأنه أن يتعبني بسبب الحمى. فسرت باتجاهه دونما استعجال. في تلك الأثناء شرع في السير فوجدتني، من دون قصد، أتبعه مثل مخبر. ولأنه كان يسير مسرعا ولم أكن راغبة في الجري وراءه، وجدت نفسي وراءه بمسافة لا بأس بها.

كنت أراقبه في سيره. وبدا لي في ملابسه الاعتيادية، فتى وسيما من شأنه أن يلفت الأنظار إليه. كان يرتدي كنزة سوداء

ويسير بخطى ثابتة. طويل القامة، متناسق الجسم، رشيق الحركة. قلت في سري من دون أن أحيد بنظري عنه، إن فتيات مدرسته قد ازددن شغفا به، بلا ريب، حين رأينه، بقوامه هذا، مرتديا تنورة تلميذة، وعلمن - فيما بعد- أنها تنورة حبيبته، فليس من الشائع بين الناس أن يفقد المرء أخاه وحبيبته في الوقت نفسه معا. إنها ذروة الرومانسية. أنا أيضا كنت تولهت بغرامه لو كنت تلميذة متبطلة ولبذلت ما أستطيع لكي أعيده إلى الحياة. فالفتيات، في صباهن الباكر، يعشقن مثل هذه القصص.

إذا ناديته، فمن المؤكد أن هييراجي سيبتسم لي. أعلم ذلك جيدا. مع ذلك، ومن دون سبب، تحرجت قليلا من مناداته فيما هو يسير وحيدا، بالإضافة إلى إحساسي آنذاك بأن المرء عاجز عن فعل أي شيء لمساعدة أي إنسان. لابد أني كنت متعبة حقا. فلا شيء يتسلل مباشرة إلى قلبي. وددت أن أهرب على جناح السرعة، لكي أصل إلى المكان حيث الذكريات لاتكون، أخيرا، سوى مجرد ذكريات. ولكن مهما ركضت وركضت، كان الطريق لا يزال طويلا، ومجرد التفكير في المستقبل يجعلني أرتعد من الحزن.

في تلك الأثناء توقف هييراجي بغتة، وتلقائيا توقفت مثله. إنه تعقب فعلي، قلت في سري مبتسمة، وإذ هممت بالاقتراب منه هذه المرة أدركت، فجأة، سبب توقفه فتراجعت إلى الوراء.

كان يتطلع إلى واجهة مخزن لبيع لوازم التنس. وبدا من ملامحه الساهية أنه ينظر إلى الواجهة بشرود. غير أن

ملامحه الساهية تلك كانت هي التعبير الأبلغ عما يختلج في أعماق نفسه كالارتكاس لدى بعض الحيوانات، قلت في سري، كفرخ البط الذي يتبع كل ما يتحرك أمامه ظنا منه أنه يتبع أمه! وقد يبدو سلوكه هذا مؤثرا، لكنه فطر على ذلك.

شعرت بأن قلبي ينقبض.

في غمرة ضياء الربيع، بين المارة، كان هييراجي لا يزال مستغرقا في تطلعه إلى الواجهة. فمن المؤكد أن كل ما له صلة بلعبة التنس يجعله يشعر بالحنين. أعرف ذلك لأن لهييراجي تأثيرا مماثلا علي أنا: مجرد حضوره كان يشعرني بالارتياح، لأن حضوره كان يذكرني بهيتوشي. وكل هذا يدعو للحزن.

أنا أيضا، تابعت، ذات يوم، دورة تنس شاركت فيها يوميكو، عندما عرفوني بتلك الفتاة وجدت أنها لطيفة، لكنها بدت لي عادية جدا، بلطفها وإقبالها على الحياة، فلم أدرك ما الذي فيها قد يجذب فتى غير اعتيادي كهييراجي الذي كان مولعا بها. في الظاهر بقي هو، كما تعرفه، لكن شيئا ما لدى يوميكو كان يفتنه. قوة ما كانت تجعلهما متساويين. فسألت هيتوشي مستفسرة عما قد يكون هذا الشيء.

إنه التنس! قال ضاحكا.

التنس؟

أجل. هييراجي يرى أنها لا تقهر!

كنا في فصل الصيف. وكنا قد شاهدنا أنا وهيتوشي وشقيقه مباراة نهائية لعبتها يوميكو على ملعب المدرسة، تحت شمس حارقة. كانت الظلال كثيفة، والحر يجفف الحلق. كان كل شيء باهرا في ذلك الوقت.

وكانت يوميكو خصما لا يستهان به بالفعل. كأنها استحالت شخصا آخر، حتى أني لم أستطع أن أرى فيها تلك التي كانت تتبعني بابتسامة طفلة وديعة. كنت أشاهد المباراة مذهولة. هيتوشي بدا مذهولا هو أيضا. أما هييراجي الذي بدا عليه الفخر، فلم يكف عن ترداد قوله: «أرأيتم، أنها رائعة!».

كانت تضغط بقوة بأداء مقتدر، شديد التركيز، لا يترك للخصم أي هامش للاسترخاء. وكانت حقا مثيرة للإعجاب. بتعابير وجهها شبه القاتلة التي تذكر بحيوان شرس. ولكنها ما أن أحرزت الفوز بضربة نهائية حاسمة، حتى طالعت هييراجي بابتسامة طفولية، مستعيدة، بسرعة لافتة، ملامح وجهها المعتاد.

خلال صحبتنا، نحن الأربعة، أمضينا أوقاتا رائعة. كانت يوميكو غالبا ما تردد على مسمعي قولها: «ساتسوكي، أود أن نبقى دائما أصدقاء! يجب ألا تنفصلي عن هيتوشي!»، فأجيبها بنبرة ساخرة: «وماذا عنكما أنتما؟» فتضحك دائما قبل أن تجيبني: «نحن! أجل، بالتأكيد!»

ثم جرى ما جرى. وكان ذلك حقا صعب الاحتمال.

لم يكن هييراجي مثلي. فمن المؤكد أنه اليوم ما عاد يفكر في يوميكو. فالشبان لا يجاملون أنفسهم بمساكنة الألم. غير أن جسده وعينيه يفصحان عما هو أبلغ من أي خطاب.

ولن يصوغه طبعا، ولن ينطق به، فمثل ذاك أمر بالغ القساوة، أمر مفرط في قسوته أن يتلفظ بما يشبه هذه الكلمات:

«كم أود أن تعود»

في مايشبه الصلاة. كم يحزنني هذا كله! هل بدوت بمثل هذا الضياع، عند الفجر، قرب النهر؟ أهذا ما حدا بأورارا إلى التطفل علي للتعرف بي؟ أنا أيضا... أنا أيضا، أود أن أراه. أن أرى هيتوشي مجددا. كنت أريد أن يعود. كنت أريد، على الأقل، أن أودعه.

آخر الأمر، تخليت عن محاولتي الاقتراب من هييراجي، وغادرت المكان عازمة على أن أكون مبتهجة حين ألتقيه مرة ثانية، وألا أخبره بأني رأيته ذاك اليوم.

كانت الحمى قد اشتدت علي بوضوح، وهذا تحصيل حاصل. فما المتوقع إذا كان المحموم يجول متسكعا في شوارع المدينة بدلا من أن يلزم فراشه؟

«أليس ممكنا أن يكون التهاب النقي(*)؟» قالت أمي ضاحكة. فأجبتها بابتسامة خاطفة. لعل ما تقوله صحيحا. ففي آخر الأمر، ربما يكون سم أفكاري غير المفيدة قد انتشر في جسمي.

تلك الليلة، ككل ليلة، رأيت هيتوشي في الحلم. فعلى الرغم من الحمى كنت أركض باتجاه النهر، وكان واقفا على الجسر وسألني ضاحكا: «ولكن ماذا تفعلين هنا وأنت مصابة بمثل هذا الزكام؟» كان الأمر مريعا. فتحت عيني فإذا النهار لم يبزغ إلا قليلا: وكان الوقت قد شارف الساعة التي أرتدي فيها ملابسي، وأنطلق لممارسة رياضتي. يا للبرد، يا للبرد

(*) التهاب عظام المخ الذي يسبب حمى شديدة.

القارس! كان جسدي محموما، لكن يدي وقدمي مجمدة، وأرتعد كالغصن اليابس وأعضائي كلها تؤلمني.

كنت مرتعدة وعيناي مفتوحتان في العتمة، خيل إلي أني أصارع كائنا ضخما، مفرطا في ضخامته. وللمرة الأولى في حياتي قلت في سري إنني قد أهزم.

كان فقدان هيتوشي أمرا مؤلما.. مؤلما جدا.

كنت كلما ضمني بين ذراعيه أتعلم عبارات بلا كلام. وكنت أدرك غرابة أن أكون قريبة من كائن آخر، من أحد ما غير أبي أو أمي أو نفسي ذاتها. وبفقداني يديه وقلبه خبرت أكثر ما يمقت الناس شهوده، ولامست جبروت أعمق ما قد يكابد من اليأس. كنت حزينة.. بكل قسوة الحزن. ففي حاضري كنت أحيا الأسوأ، وإن تمكنت من تجاوزه فلا بد من وجود صباحات أخرى، وأمور مبهجة من شأنها أن تحثني على الضحك. لو كان النور يتدفق.. لو كان النهار يجيء.

لطالما أعانتني تلك الفكرة على التحمل، ولكن، في ذلك الصباح، إذ وجدتني حتى عاجزة عن النهوض للذهاب إلى النهر، لم أشعر إلا بالألم. كان الوقت الذي ينقضي فاترا وبلا طعم. وكنت شبه موقنة بأنني إذا ركضت حتى الجسر، فسوف أجد هيتوشي هناك، كما في حلمي. خيل إلي بأنني واقفة على حافة الجنون، بأنني أتعفن في مكاني.

بعد نهوضي متباطئة كالحلزون، سرت باتجاه المطبخ لكي أشرب شايا. كان حلقي جافا على نحو مريع. بدا لي البيت، تحت تأثير الحمى، معوجا ممطوطا كما في لوحة سريالية،

أفراد الأسرة كلهم نائمون والمطبخ غارق في البرودة والعتم. أعددت، وأنا أغالب نعاسي، شايا ساخنا جدا وعدت أدراجي إلى غرفتي.

أشعرني الشاي بأني أصبحت أحسن حالا. وإذ رويت عطشي، صار تنفسي أقل ضيقا.. فنهضت لكي أرفع الستائر عن النافذة المحاذية لسريري.

من هناك كنت أستطيع أن أرى بوابة المنزل وكذلك الحديقة. كانت الأشجار والأزهار ترتعش برفق في الهواء المائل إلى الزرقة، مشكلة منظرا عريضا من لون واحد. كان المنظر جميلا، وكل شيء فيه يبدو غاية في النقاء، مغلفا بزرقة الفجر!

كنت قد فطنت إلى كل ذلك منذ عهد قريب. وفيما كنت أتطلع إلى ما يجري في الخارج لمحت، على الرصيف أمام البيت، خيال شخص مقبل سيرا على الأقدام. حين اقترب رحت أفرك عيني كأن ما أراه حلما: كان الشخص المقبل نحوي هو أورارا. كانت تسير باتجاهي، مرتدية ملابس زرقاء، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة. توقفت أمام البوابة، وقرأت حركة شفتيها تتمتمان: «هل أستطيع الدخول؟» أشرت برأسي «بلى». فاجتازت الحديقة وأقبلت نحوي حتى أسفل النافذة. فتحت الزجاج، وكان قلبي يخفق بقوة.

«ياله من برد قارس!» قالت. ومالبث الهواء الجليدي، الذي انسل إلى غرفتي، أن رطب وجنتي الملتهبتين من الحمى. كان الهواء العذب منعشا.

«ما الذي أتى بك إلى هنا؟» سألت. ولابد أني ضحكت من البهجة مثل طفلة صغيرة.

«إني في طريق عودتي من نزهتي الصباحية. يبدو أن زكامك لم يتحسن بعد. هاك، هذه أقراص بالفيتامين ج».

وناولتني بضع أقراص من جيبها. كانت ابتسامتها عذبة.

«شكرا جزيلا»، سارعت إلى القول بصوت أبح.

يبدو أن الحمى شديدة عليك. إنه أمر شاق، أعلم.

أجل، حتى لقد ألفيتني هذا الصباح عاجزة عن الركض.

وكنت أشعر برغبة شديدة في البكاء.

إن زكامك، قالت أورارا بهدوء وبإغضاءة طفيفة، قد بلغ الآن ذروة احتقانه، وهذه بالتأكيد مرحلة أضنى من الموت. ولكن بعد ذلك، فإن الأمور تتحسن بالتأكيد، لأن حدود الاحتمال مختلفة لدى الجميع. قد تصابين مرات أخرى كثيرة بالزكام، وسيكون عليك أن تكابدي مرارا ما تكابدينه الآن، ولكن إذا تحملت فلن تكون شاقة عليك كما هي حالك اليوم. الأمور دائما تجري على هذا النحو. طبعا هناك من تحبطه فكرة أن المصاعب ستتكرر، ولكن بإمكاننا دائما أن نقول مقتنعين إن الأمور قد تكون أسوأ، وإذ ذاك تصبح الأمور أقل شقاء، أليس كذلك؟ وتبسمت لي.

لزمت الصمت حائرة جاحظة العينين. هل كان الزكام فقط هو ما حدثتني عنه؟ هل كانت تحاول أن تفهمني أمرا آخر؟... زرقة الفجر والحمى كانتا تغشيان كل شيء، وكنت قد كففت عن التمييز بوضوح بين الحلم والواقع. وإذ انحفرت

كلماتها في صميم قلبي، رحت أحدق، ساهية، بغرتها التي كان يداعبها النسيم.

«حسنا، إلى الغد!» قالت أورارا مبتسمة، وأغلقت النافذة من الخارج. ثم غادرت مجتازة البوابة بخطى رشيقة راقصة.

رحت أنظر إليها وهي تبتعد وبي إحساس بأني عائمة في لجة حلم. كنت مغتبطة لأنها جاءت للاطمئنان إلى حالي على أثر تلك الليلة القاسية! وكانت فرحتي لتبكيني. ولو وددت أن أخبرها كم أسعدني مجيئها في ذلك الضباب المائل إلى الزرقة كأنه طالع من حكاية خرافية، حتى أني حسبت أن الأمور ستكون أفضل قليلا حالما أستيقظ. ثم غرقت في نوم عميق.

عندما فتحت عيني.. أحسست، على الأقل، بأن الزكام قد صار أخف. لقد نمت نوما هانئا! وكان المساء قد حل منذ بعض الوقت. نهضت واغتسلت، و بعد ارتدائي ملابسي نشفت شعري. خبت الحمى قليلا، وما عدا إحساسي بشيء من الخمول، كنت في حال أفضل.

هل جاءت أورارا حقا، رحت أسأل في سري فيما هواء مجفف الشعر الساخن يلفح خدي. فقد بدا لي كل شيء أشبه بالخيال... وكلامها هل كان حقا عن زكامي؟ فقد ترددت كما تتردد أصداء في حلم.

على وجهي المنعكس على المرآة كان يلوح ظل خفيف، هذه علامة تدل على أن ليالي أخرى قاسية حقا كالذبذبات التي تنتج عن صدمة ستأتي بعد. كنت أشعر بالإعياء. منهكة إلى

حد يجعلني غير راغبة في التفكير بما ستكون عليه الليالي المقبلة. ومع ذلك، كنت مصممة على النجاة حتى ولو زحفا.

كان تنفسي، ذلك اليوم، أقل مشقة مما كان عليه البارحة. ومع ذلك، فإن مجرد التفكير في احتمال أن تمر علي ليال من العزلة الطاحنة، كان يحبطني بعمق.. تلك هي الحياة إذا! تكراراتها الأبدية! لمجرد التفكير كانت تسري في جسمي رعدة. ولكن، في الوقت نفسه، كان الأمر عظيما لدرجة أن قلبي تأخذه الرعشة، حيث يمكن الجزم بأن يوما ما سيأتي حتما، فيه نتنفس بشكل أفضل.. هناك أمل قابل، على الدوام، أن يولد من جديد.

وأخيرا ارتسمت على وجهي ابتسامة، حيال تلك الخاطرة. وكان لانخفاض وطأة الحمى المفاجئ تأثيره المباشر على قدرات ذهني كما لو كنت رجلا ثملا. في تلك الأثناء سمعت طرقا على الباب. «أجل، أجل»، أجبت بلا كلفة، ظنا مني أنها أمي. فتح الباب وإذا، لدهشتي الكبيرة، بهييراجي أمامي. لم أكن أتوقع قدومه على الإطلاق.

لقد نادتك أمك أكثر من مرة، وبما أنك لم تردي أبدا... قال.

مجفف الشعر هو السبب.. لم أسمع شيئا.

شعرت بشيء من الحرج بسبب شعري المبلل والأشعث، لكن هييراجي، الذي لم يعر الأمر انتباها، قال لي مبتسما: «لقد اتصلت بك هاتفيا، وأخبرتني أمك أنك أصبت بنزلة قوية، ضرب من التهاب النقي وها أنا جئت إليك بزيارة قصيرة».

فجأة تذكرت أنه كان غالبا ما يأتي إلى منزلي بصحبة هيتوشي. أيام الأعياد، أو في طريق العودة من مباراة بايسبول... وبعفوية لا مثيل لها أمسك بأريكة وتهالك جالسا عليها. كيف أمكن لي أن أنسى كل هذا؟

«هذه هدية للمريضة!» وضحك هييراجي وهو يقدم لي كيسا كبيرا من الورق. عندها لم أجرؤ على القول بأني تعافيت من زكامي، كان لطفه غامرا بحيث وجدتني مجبرة على السعال. إنه سندويش الدجاج «كنتاكي فرايد تشيكن» الذي تعشقينه وحلوى مثلجة، ومعها شراب كوكاكولا. وأحضرت مثلها لنفسي، سوف نتناول الطعام سويا!

كان يعاملني كشيء هش، قابل للكسر بسهولة، وهو أمر لم أجد أنه إطراء كبير، لابد أن أمي قد أخبرته أمرا ما. فشعرت بشيء من الضيق. ولكني، في الوقت نفسه، لم أكن في أحسن حال لكي أقول له: «إني على ما يرام، فما الداعي لقلقك؟»

جلسنا سوية على الأرض، متنعمين بالدفء العذب الذي كانت تشيعه المدفأة في أرجاء الغرفة، وانصرفنا متمهلين إلى تناول ما أحضره من طعام. وعندئذ شعرت بأني كنت جائعة، بدا لي كل ما أكلناه لذيذا. لِمَ يكون الطعام بصحبته لذيذا؟ أمر لا يمكنني تفسيره.

ساتسوكي!

أجل؟

انتشلني صوت هييراجي فجأة من استغراقي في ما كنت

أفكر فيه، ورفعت رأسي.

ليس مستحبا أن تبقي وحيدة هكذا لقد هزلت بسرعة كلمح البصر. عوضا عن تعذيب نفسك على هذا النحو حتى الإعياء، ما عليك إلا أن تتصلي بي! يمكننا أن نخرج سويا. كلما رأيتك أجدك أكثر نحولا، وعلى الرغم من ذلك تحاولين أن تظهري بمظهر الفرح، ولكن عبثا، لأن ذلك يستنفد طاقتك! أنت وهيتوشي كنتما على أحسن حال معا، وأمر طبيعي أن تكوني حزينة. حزينة حتى الموت!.

قال ذلك كله بنفس واحد دون توقف. لبثت مندهشة. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يبدي فيها حيالي مثل هذا الاهتمام الطفولي. ولأني أعلم جيدا أنه لا يحب أن يبدو عاطفيا، أثرت فيَّ كلماته، غير المتوقعة، تلك في صميم قلبي. وشعرت فجأة بأني أدركت أخيرا ما أحس به هيتوشي في ذلك اليوم، عندما أخبرني ضاحكا بأن أخاه لا يستعيد طباعه الطفولية إلا إذا كانت المسألة تتعلق بعائلته.

صحيح أني مازلت حدثا، وإني حين لا أرتدي تنورة التلميذة أشعر بالتشوش، مما يجعلني، أنا نفسي، غير متمتع بقوة هائلة، كما أبدو، ولكن في المأساة يكون الجميع إخوة، أليس كذلك؟ وأنا أحبك بمقدار لا أتردد معه أن أقاسمك فراشي!.

قال ذلك بجدية بالغة ساهيا، فيما يبدو، عن طرافة ما يقول. يا لها من شخصية، قلت في سري ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الاستغراق في الضحك. ثم قلت له، من صميم قلبي: «أنت محق. لن أبقى على هذه الحال، أعدك

بذلك! شكرا لك. شكرا جزيلا!».

بعد أن غادر هيراجي عدت إلى النوم. وربما بسبب العقاقير المضادة للزكام كان نومي عميقا هادئا وخاليا من الأحلام، وهو الأمر الذي أنعم به منذ وقت طويل، نوم مبارك، زاخر بالرجاء كالنوم الذي يسبق صبيحة عيد الميلاد زمن الطفولة. حالما أستيقظ سأذهب إلى ضفة النهر حيث تنتظرني أورارا، لكي أرى ذلك الشيء... الذي حدثتني عنه.

قبل بزوغ الفجر.

لم أكن قد تعافيت تماما، لكني ارتديت ملابس الجري.

كان كل شيء جامدا في كنف البرد والصمت، وبريق القمر كأنه مسمر في كبد السماء. كنت أعدو وصدى خطواتي يتردد في أرجاء زرقة الفجر الوادعة، قبل أن تمازجه متلاشية عبر الشوارع.

كانت أورارا هناك، واقفة فوق الجسر وقد دست يديها في جيبيها، وغطت وجهها بشالها. لما دنوت منها قالت لي صباح الخير بابتسامة أظهرت بريق عينيها.

بضعة نجوم كانت لا تزال لامعة، تغمز ببريق أبيض، شبه مطفأ في سماء متشحة بالزرقة.

منظر جميل يشيع في الجسم رعشة. هدير النهر، والهواء العذب.

أرأيت هذه الزرقة؟ حتى أجسادنا تمتزج بها... قالت أورارا، وقد بسطت كفها فوق عينيها.

كانت خيالات الأشجار الغائمة التي ينتزع النسيم حفيفها،

تنعكس على صفحة الأفق. والسماء تميد برفق. وعبر القمر بضيائه ناحية الظل.

لقد حان الوقت. كان صوت أورارا متشنجا.

اصغي جيدا! منذ هذه اللحظة لن يعود ..لا المكان ولا الزمان ولا الحدود موجودة. فهذه كلها سوف تنهار، وتتراجع، في الزمان، قليلا. حتى بوقوفنا جنبا إلى جنب، فإن إحدانا قد لا ترى الأخرى لهنيهة، أو قد ترى كل منا أشياء مختلفة... عند الضفة المقابلة للنهر. ولكن علينا أن نمتنع عن الكلام، وألا نعبر الجسر. هل أنت موافقة؟

موافقة.

وساد صمت.

وحده هدير المياه كان يتناهى إلى مسمعنا. جنبا إلى جنب، محدقين بالضفة الأخرى. كان قلبي يخفق بقوة، وساقاي ترتعدان. كان الفجر يقترب شيئا فشيئا، ويعم الضياء أوضح فأوضح، وزقزقات العصافير تتناهى إلى مسمعنا، متقطعة بين الفينة والأخرى.

سمعت، في باطن أذني، صوتا يكاد أن يكون غير مسموع. ألتفت تلقائيا فلم أجد أورارا بجانبي. لم يكن هناك سوى النهر والسماء وأنا... وممتزجا بالماء والهواء، ذلك الصوت الأليف، ذلك الصوت المحزن...

الجرس الصغير. لم يكن هناك أي مجال للشك: إنه رنين جرس هيتوشي. كان يصدر رنينا خافتا في ذلك الفضاء الذي لم يكن فيه أحد سواي أنا. أغمضت عيني، لكي أسمعه طي

الهواء على نحو أفضل، ثم فتحتهما مجددا، وعندما نظرت إلى الضفة الأخرى، حسبت أنني جننت حقا، أكثر جنونا مما كنت عليه خلال الشهرين المنصرمين. كدت أن أصرخ وتمالكت نفسي بمشقة كبيرة.

كان هيتوشي هناك.

إن لم يكن ذلك حلما، وإن لم أفقد رشدي حقا، فهذا يعني أنه كان هو ذاك الواقف عند الضفة الأخرى، ناظرا إلي. وذلك النهر بيننا... غمرني الحنين وعاودتني ذكرى كل تفصيل من خياله مماثلة للصورة التي أحفظها عنه في قلبي.

كان يتطلع إلي عبر ضباب الفجر المائل إلى الزرقة. كان، كما عرفته دائما حيال هفواتي، بادي القلق، وداسا يديه في جيبيه، كان يحدق بي بنظرات ثابتة. ومهما بدت قريبة أو بعيدة، تلك السنوات كلها التي قضيتها في أحضانه... لبثنا هناك، واقفين، يتطلع أحدنا إلى الآخر. وحده القمر الشاحب كان شاهدا على ما يفرق بيننا، جريان النهر الهادر وتلك المسافة المدوخة. وكان شعري وقميص هيتوشي الذي طالما أحببته يتطايران في الهواء كأننا في حلم.

هيتوشي، أتريد أن تكلمني؟ أنا، لدي الكثير لأقوله لك. كم أود أن أركض إليك، أن أرتمي بين ذراعيك، أن أشاطرك فرحة لقائنا مجددا. ومع ذلك ، بدأت الدموع تنهمر من عيني، لقد فرق بيننا القدر، وجعل النهر فيما بيننا وما عدت أستطيع أن أوافيك. لا أملك إلا أن أتطلع إليك من بعيد، باكية. وأنت أيضا، ترمقني وقد بدا عليك الحزن. فقط لو أن الزمن

يتـوقف... ولكن، مع تـسلل أنوار الفـجـر الأولى، بدأ كل شـيء يتـلاشى على مـهل. وأمـام ناظري، راح هـيتـوشي يبـتـعـد شـيـئـا فـشـيـئـا، وإذا اسـتـبـد بي الاضطراب فـزعـا، راح يلـوح بيـده متبسما. تلويحة الأيدي المتكررة أبدا. كان يغوص في العتمة الزرقاء. وبدوري أومأت بيدي. هيتوشي... كنت أود أن أنقش في داخلي هيئة كتفيه وذراعيه الغالية على قلبي. كنت أود أن أحـفظ فـي ذاكـرتـي، إلى الأبد، ذلك المشـهـد الملتـبس، ودفء دموعي التي انهمرت على خدي. كانت خطوط ذراعيه ما زالت تشكل صـورة أخيـرة منعكـسـة على صـفحة السـمـاء. أما هو، ففي ابتعاده رويدا، غاب عن ناظري متلاشيا، وتبعته بنظراتي المغبشة بدموعي.

ما أن توارى عن نظري تماما حتى استعادت موجات النهر عند الفـجـر حلتـهـا التـي طالمـا ارتـدتـهـا. وكـانت أورارا بجـانبي. ومن دون أن تلتـفت نحـوي سـألتني بأسى بالغ: «هل رأيت؟»

أجل، أجبتها وأنا أمسح دموعي.

وهل أثر فيك ما رأيت؟

ثم استدارت نحوي مبتسمة. هدأت قليلا، فقلت «أجل» وأنا أبادلها البسمة، ولبثنا هناك بعض الوقت ريثما لاحت تباشير الصباح.

خلال احتسائنا القهوة الساخنة في محل لبيع الحلوى يفتح أبوابه قبيل الفجر، قالت لي أورارا والنعاس يغالبها: «أنا أيضا توفي صديقي في حادثة مروعة، وجئت إلى هذه المدينة على

أمل أن أودعه»

هل رأيته مجددا؟ سألت.

أجل، قالت أورارا ضاحكة. إنه أمر لا يحدث إلا مرة واحدة كل مائة عام تقريبا، عندما تجتمع بعض الظروف. ولكن يستحيل أن نعرف بالضبط في أي مكان أو زمان. ومن يعرفون بوجود هذه الظاهرة يسمونها «تانا باتا»(*)، لأنها لا تحصل إلا بقرب الأنهر الكبيرة. لكنه ليس حدثا يشهده الجميع. ولكي تظهر على هيئة سراب يجب أن يكون هناك صدى ما بين روح الميت التائهة وحزن من تبقى. أنا أيضا شهدته للمرة الأولى... لابد أنك محظوظة جدا!

كل مائة عام!

لبثت ساهية حيال ذلك الاحتمال الضئيل، شبه المعدوم.

«وصلت إلى هذه المدينة، رحت أتحرى الأماكن وصادفتك على الجسر. وبفطرتي الحيوانية أدركت على الفور أنك فقدت عزيزا. ولهذا السبب أخبرتك عن الحدث.

قالت، ثم تبسمت.

كان نور الصباح يتماوج في شعرها، وأورارا غائبة في صفاء سريرتها وسكينتها كأنها تمثال.

ولكن من كانت حقا؟ من أين جاءت وما الوجهة التي تقصدها؟ ومن ذاك الذي رأته عما قليل، على الضفة الأخرى من النهر؟... كنت أشعر بأني عاجزة عن طرح تلك الأسئلة

(*) نسبة إلى أحد أكثر الأعياد شعبية في اليابان، والذي يحتفل به، بحسب رواية صينية قديمة، بلقاء المحبين بعد فراق، مرة واحدة في العام على ضفاف المجرة والغزال والطائر.

عليها.

الفراق والموت أمران شديدا القسوة. لكن حبا لا يشعرك بأنه هو الأخير، لا يستحق العناء، حتى لتمضية الوقت! قالت، كأنها تتحدث عن أمر تافه وهي تمضغ قضمة من فطيرة.

لذلك أشعر بالسعادة لأنني ودعته اليوم.

وتراءى لي في عينيها بحر من الحزن.

«... بلى، وأنا أيضا» قلت. فنظرت أورارا، التي غمرت أشعة الشمس وجهها، إليَّ بحنان.

هيتوشي يلوح لي بيده. لقد آلمني ذلك المشهد كشعاع نور ينغرز في قلبي. أهو أمر جيد؟ كنت لا أزال أجهل ما إذا كان جيدا أم لا. فحتى تلك اللحظة، تحت أشعة الشمس اللاهبة، لم تكن توقظ في سوى أصداء أليمة.. أصداء معذبة إلى حد يجعلني عاجزة عن التنفس.

ومع ذلك... مع ذلك، كنت أشعر، وقد أثملتني نكهة القهوة الخفيفة، وأورارا المبتسمة قبالتي، بأني قريبة جدا من «شيء ما». كان الهواء يرج زجاج الواجهة. حتى لو فتحت عيني وشرَّعت قلبي فإن هذا الشيء لا يسعه إلا أن يرحل كما غادرني هيتوشي. كان يلمع متوهجا في العتمات، كما تتوهج الشمس، وكنت أعبر من خلاله بسرعة فائقة. وقد استبد بي إحساس ببهجة غامرة كالأنشودة.

أود أن أكون أقوى!

هل سترحلين إلى مكان آخر؟ سألتها فور مغادرتنا المحل.

«أجل تبسمت وأمسكت يدي. ذات يوم سوف نلتقي مجددا! لن أنسى رقم هاتفك»

وغادرت مبتعدة مع الحشد في شوارع الصباح. وإذ تبعتها عيناي قلت في سري: «وأنا أيضا لن أنساك، لقد وهبتني أشياء كثيرة!»

«احذري! ذلك اليوم. رأيت...» قال لي هييراجي.

كنت قصدت مدرسته، خلال فترة الاستراحة، لأعطيه، مع بعض التأخير، هدية عيد ميلاده وجلست أنتظره على مقعد في ملعب الرياضة متطلعة إلى التلاميذ المستغرقين في أداء تمارينهم. جاءني راكضا ولاحظت بدهشة أنه لا يرتدي التنورة. وعاجلني بتلك العبارة حتى قبل أن يجلس بقربي.

من رأيت؟ سألت.

يوميكو، قال. صدمني ما قاله. مجموعة من التلاميذ في ملابس الرياضة البيض، مرت بنا مجددا مثيرة الغبار من حولنا.

كان ذلك صباح أول أمس، على ما أعتقد، أردف قائلا. ربما كان مجرد حلم. فقد كنت شبه نائم حين فتح الباب فجأة، رأيت يوميكو ماثلة أمامي. دخلت كأن شيئا لم يكن حتى أني نسيت أنها ميتة وناديتها. قالت «صه!» واضعة إصبعها فوق شفتيها وتبسمت لي... عندما أفكر فيما جرى يخيل إلي أنه حلم. ثم فتحت خزانة غرفتي وأخرجت منها تنورتها المدرسية وغادرت بها. تمتمت شفتاها «وداعا» وهي تضحك، ثم لوحت بيدها. لم أدر ماذا أفعل فعدت إلى النوم. بلى، لابد أنه حلم، لكن

التنورة اختفت. فتشت عنها في كل مكان، لكنها اختفت. أتعلمين؟ لقد بكيت!

... هكذا إذا، قلت. ففي آخر الأمر، قد يكون شيء ما قد حدث، في ذلك اليوم، في ذلك الصباح، في مكان آخر بعيدا عن ضفاف النهر. وبما أن أورارا لم تعد هناك لم تكن لدي أية وسيلة للتثبت من الأمر. لكني حين رأيت هييراجي على هدوئه المعتاد، قلت في سري إن الأمر قد يكون منوطا به هو، ربما لأنه شخص غير اعتيادي، وبإمكانه أن يستدرج إليه ظاهرة لا ينبغي أن تحدث إلا في مكان معين.

أتحسبيني معتوها بعض الشيء؟ سألني على سبيل المزاح.

بعد ظهر ذلك اليوم الربيعي المضيء بضياء عذب، كانت النسائم تحمل إلينا صخب الظهيرة. وإذ مددت إليه يدي ممسكة بالأسطوانة التي أحضرتها له كهدية، قلت ضاحكة: «في أحوال مماثلة أنصحك برياضة الجري!».

ضحك هييراجي بدوره. ضحك كثيرا في غمرة الضوء.

أود أن أكون سعيدة. وبدلا من أن أشقى كثيراً في جرف مجرى النهر، فلأستسلم لغواية حفنة من شذرات الذهب. وآمل أن يكون كل من أحببتهم أكثر سعادة في المستقبل.

هيتوشي.

لا أستطيع أن أبقى هنا. يجب أن أتابع تقدمي، لأن الوقت ينقضي ولا سبيل لإيقافه. يجب أن أرحل.

بعثة تنتهي، بعثة تبدأ. هناك أناس سوف نلتقيهم ذات يوم، وهناك آخرون لن نراهم بعد اليوم، وهناك من يبتعدون مع

الوقت، ومن نصادفهم عابرين فقط. نتبادل التحية لدى عبورنا، وكلما فعلنا أزداد صفاء. ومن دون أن أحيد بنظري عن النهر يجب أن أواصل العيش.

ولكن على الأقل، ليبق ذلك الحضور الطفولي للفتاة التي كنتها، بقربك إلى الأبد!

شكرا لأنك لوحت لي بيدك. شكرا لأنك قلت لي وداعا.

المؤلف في سطور

بنانا يوشيموتو

- ولدت في طوكيو عام ١٩٦٤.
- تخرجت في جامعة «نايهون» حيث درست الفنون والآداب.
- نالت جائزة «ايزومي كيوكا» لقسم الفنون عام ١٩٨٦ عن روايتها القصيرة «خيالات ضوء القمر». وفي العام التالي نالت جائزة «مجلة كايين» للكتاب الشبان عن روايتها «مطبخ» التي لم تنشر إلا في العام ١٩٩١، وقد اقتبست هذه الرواية مرتين للسينما، وأعيد طبعها باليابانية أكثر من ستين مرة.
- أصدرت إحدى عشرة رواية وسبعة مؤلفات أدبية أخرى.
- ترجم معظم أعمالها إلى عدة لغات مثل: الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية.. وغيرها.

المترجم في سطور

بسام حجار

- ولد في صور بلبنان.
- تخرج في الجامعة اللبنانية عام ١٩٨٢، كما حصل على دبلوم الدراسات المعمقة (DEA) في الفلسفة من جامعة السوربون بباريس عام ١٩٨٦.
- له مؤلفات عديدة في الشعر والنقد، كما ترجم العديد من الروايات والأشعار والقصص والدراسات في مجال الأدب، بالإضافة إلى ترجمات أخرى لبعض الأعمال الفكرية.

المراجع في سطور

د. منى إبراهيم الغريب

- حصلت على درجة الدكتوراه في علم اللغة والثقافات من جامعة السوربون بباريس.
- تعمل في مركز اللغات بجامعة الكويت، وهي أيضا مستشارة في مجلس الأمة الكويتي.
- قامت بكتابة عدة أبحاث منها: «رمز العين والأنف والرأس في المجتمع الكويتي»، ونشرت بحثا في المجلة الفرنسية العلمية «حركة وصورة» حول التواصل غير اللفظي في المجتمع الكويتي.
- تتميز بمشاركتها الفعالة في جميع الأنشطة الثقافية والإعلامية والوطنية والعلمية.